الصادق النيهوم

العودة المحزنة إلى البحر

Twitter: @alqareah
11.4.2015

@ketab_n

مكتبة النيهوم
سلسلة الدراسات: (7)



الصادق النيهوم

اعداد وتحقيق: سالم الكبتي

العودة المحزنة إلى البحر

مكتبة النيهوم ـ سلسلة الدراسات (7)



Twitter: @alqareah

العودة المحزنة إلى البحر

الصادق النيهوم

Twitter: @alqareah

العودة المحزنة إلى البحر

مكتبة النيهوم ـــ سلسلة الدراسات (7)

الصادق النيهوم

اعداد وتحقيق: سالم الكبتي



Email: talabooks@hotmail.com

المايا ـــ الجماهيرية العظمى

التوزيع الحصري خارج الجماهيرية العربية الشعبية الاشتراكية العظمى
مؤسسة الانتشار العربي



ص. ب. 113/5752 ر. ب. 2070 1103
Email: arabdiffusion@hotmail.com
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى 2004

Twitter: @alqareah

نشرت هذه الدراسة بصحيفة الحقيقة ـ بنغازي

1970-1969

«استفاد محقق الدراسة في التعريف ببعض الأعلام والشخصيات من:
الموسوعة العربية الميسرة، إشراف، محمد شفيق غربال ـ القاهرة 1965.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الأولى 1

السؤال المسطح الذي يلهث العالم وراء إجابته طوله في الواقع أربع كلمات: (ماذا يحدث لحضارة أمريكا؟). والمرء يتصور بالطبع أن ذلك يخص الأمريكيين وحدهم، وأن الإجابة الصحيحة لابد أن تصل من الداخل، ولكن أمريكا أيضاً لا تعرف إجابة محددة.. إنها تعاني مرضاً غامضًا مميتاً بعيد الغور، يستطيع المرء أن يسمعه يتنفس في كل المدن المنسقة الشوارع، ولكنه لا يستطيع أن يعرف كنهه قط. مرض يشبه رائحة جثة غير مرئية تتعفن في مكان ما من ذلك العالم المترامي الأطراف، ولا يعرف أحد مكانها بالضبط.

وحضارة أمريكا تجربة فريدة في تاريخ العالم المادي. إنها قمة المحاولة التي بدأت منذ بضعة آلاف من السنين لحل مشاكل الإنسان المادية بزيادة الإنتاج وتحسين الصنف، وهي أيضاً نقطة النهاية التي وصلت إليها الأحلام الإنسانية القديمة

Twitter: @alqareah

بتوفير أكبر قدر من (الحرية) داخل أكبر قدر من فرص النظام (الديمقراطي) لتحقيق الغايات النهائية للرخاء.

فليس ثمة شعب آخر ـ في تاريخ العالم بأسره ـ بنى حضارة متكاملة نظرياً كما فعل الشعب الأمريكي، وليس ثمة شعب أيضاً حقق أسطورة (الكفاءة) المادية كما تتحقق الآن في الآلة الفولاذية المجنونة التي تدور بلا توقف في مدن الولايات المتحدة.

إن (الكفاءة) كانت الهدف الحقيقي لكل الحضارات منذ أن اكتشف الإنسان ـ في إحدى لحظاته المشحونة باليأس ـ أنه لا يستطيع أن ينال حاجته من الغذاء باصطياد الأرنب البري إلاّ إذا تعلم كيف يصبح أكثر (كفاءة) من ذلك الأرنب، وقد بدأ الإنسان فاخترع السهم، واصطاد به أرنباً برياً. واكتشف إذ ذاك أن السهم يستطيع أن ينطلق بسرعة أكثر، ويضرب بدقة أكثر، وأن بوسعه أن يقف في مكانه ويتركه ينطلق وراء الصيد دون أن يكلف نفسه مشقة الجري. وصنع الإنسان كثيراً من السهام، وتعلم كيف يصبح أكثر (كفاءة) من الحيوانات البرية التي لا تعرف كيف تزيد كفاءتها عن الحد الطبيعي، ولكن الإنسان تورط أيضاً في صراع غير متوقع مع بقية الصيادين.

فجودة السلاح تعني وفرة الطعام، ووفرة الطعام تعني زيادة مطردة في النسل، وقد تزايد هذا الجنس الكفء وطفق يزاحم معظم المناطق، حتى أصبح السهم سلاحاً قديماً مفتقراً إلى الكفاءة التي يتطلبها صراع المنافسة.

وصنع الإنسان بندقية، وصنع أشياء كثيرة أخرى، وظل طوال تاريخه الحضاري يجري بلا توقف وراء تحقيق مزيد من

Twitter: @alqareah

(الكفاءة) في كل اتجاه عبر تلك اللعبة القديمة المشحونة بالأشعار والفلسفة التي تدعى (بالتطور).

وأنا أريد أن ألفت النظر هنا إلى أن كلمة الكفاءة معناها في الواقع زيادة القدرات المادية وحدها، وهي منحة لا يتميز بها سوى الإنسان العاقل، فالحيوانات لا تستطيع أن تزيد كفاءتها فى الجري أو في مصادر القوة إلاّ بمقدار ضئيل للغاية، أما الإنسان فإنه يستطيع أن يتحرك بسرعة ألف ميل في الساعة ويستطيع أيضاً أن يرفع معبد أبي سنبل من مكانه.

وهذه ـ في الواقع ـ لعبة التطور في الداخل.

إنها مجرد سعي متصل لتحقيق مزيد من (الكفاءة) خارج جدران الطبيعة الصلدة، وليس ثمة شيء واحد في حضارات العالم لم يتم بناؤه لهذا الغرض سوى الديانات المقدسة. فالدين لم يأت لزيادة قوة الإنسان المادية بل لإرشادها، رغم أنه خضع دائماً لعمليات التشويه المباشرة من قبل رجال الدين، أما بقية الأفكار التي نضجت في تاريخ الحضارة الإنسانية فقد ظلت على الدوام مصدر أمل غامر في زيادة (الفعالية) الإنسانية تجاه العالم المادي. وأنا أتعمد هنا أن أغفل مهمة الفن، لأنني ـ في الواقع ـ أعتبر ذلك في أكثر صوره أصالة جزءاً من الأتوبيا الكلية المتمثلة في الدين.

فالإنسان حيوان يبحث عن الله.

إن ذلك ـ فيما يبدو ـ هو الغاية النهائية للوجود بأسره. والمرء لا يستطيع أن يجد تفسيراً أكثر إقناعاً لظاهرة الفن في العالم، ولكن المرء أيضاً يستطيع أن يقول بهدوء إن الحضارات

Twitter: @alqareah

الإنسانية التى عرفها التاريخ حتى الآن لم توفق قط بين هذه الغاية وبين فخ الكفاءة المادية.

فالصراع يبدأ دائماً في الوقت المناسب، ويجعل الدين أو الفن يتأخر إلى المرتبة الثانية لكي تحتل (الكفاءة) المرتبة الأولى. وقد حدث ذلك بعد بضعة أعوام من نزول التوراة، وحدث بعد بضعة أعوام من تبني الدولة الرومانية للدين المسيحي، وحدث بعد عشرين عاماً فقط من نزول القرآن، وتمخض دائماً عن قيام هيئات سياسية خاصة تهدف بصورة ما إلى تحقيق مزيد من (الفعالية) المادية.

فالإنسان تأكله المادة عبر ذعره الطبيعي من تهديد بقائه، والإنسان يتنازعه عالمان متناقضان إلى حد مذهل، أحدهما يجره إلى السماء بقلبه، والآخر يربطه إلى الأرض بقدميه.. وقد أثبت في فترات متباعدة أنه يستطيع أن يحقق صعوده إلى أعلى ولكنه في أغلب الأحيان ظل سجين أحلامه المتناهية البساطة، وظل يلهث وراء مزيد من (الكفاءة) المادية، مدفوعاً برغبة جامحة في تحقيق مستوى الحياة الأفضل، وامتلاك الأسلحة الأفضل، والجلوس في أقرب مكان ممكن إلى جنته الوهمية.

وقد عملت الحضارات في هذا الاتجاه وحده سبعة آلاف عام بلا انقطاع، وتم تطوير كل الأدوات البسيطة والنافعة التي وضعها الإنسان في سباق مع الزمن، وأصبحت الميزة الحقيقية لكل عصر جديد أن (يخترع) مزيداً من الأدوات الأكثر كفاءة ويضع الأدوات القديمة في المتحف.

فالمحراث البسيط الصنع الذي ظلت الثيران تجره في

Twitter: @alqareah

حضارة مصر الفرعونية يبدو بجانب المحاريث الميكانيكية العالية الكفاءة فى حضارتنا المعاصرة مجرد لعبة لا جدوى من ورائها. ومع ذلك فإن الفرق الوحيد بين هاتين الآلتين لا يزال في الواقع مجرد فرق في مقدار الكفاءة. فالحضارة تمشي في اتجاه واحد على خط مستقيم، وليس ثمة ما يفصل بين أية نقطة على الطريق وبين النقطة التالية سوى المسافة نفسها.

إن التطور لا يحدث في داخل الإنسان إلاّ بمقدار ضئيل للغاية، ولكنه يحدث خارجه بوضوح يعادل الفرق بين عربات رمسيس(*) التي تجرها الأحصنة في مقدمة الجيش وبين الدبابات الفظيعة التي تؤدي الآن(**) نفس المهمة في أدغال فيتنام. أما هدف الحرب نفسه فإنه لم يتغير.

وهذا كل ما لدينا حتى الآن. مجرد محاولة متصلة لإيجاد آلة أفضل تؤدي مهمتها في خدمة أغراضنا بفعالية أكثر من الآلة السابقة، والمرء بالطبع لا يعني هنا أن ذلك كله كان ضد مصلحة الإنسان، فالواقع أن هذا الحكم من مهمة الله وحده، ولكن المرء يستطيع أن يعلن بثقة أن لعبة (الكفاءة) التي ظلت تمد حضارتنا بالأهداف والقيم، وظلت المصدر الحقيقي لتطور عالمنا المعاصر في ميدان الآلة، لم تثبت حتى الآن. إنها تستطيع أن تتجنب الخطأ النهائى القاتل وتطوي الإنسان

(*) اسم فرعوني مشهور، غلب على مجموعة من حكام مصر من الأسرتين (19-20).

(**) إشارة إلى حرب امريكا على شعب فيتنام المتواصلة إلى تلك الفترة من سنة 1969.

Twitter: @alqareah

نفسه تحت جناحها الأسود باعتباره مجرد آلة ملزمة بالتطور المادي.

إن (الكفاءة) هي هدف الحضارة، ولكنها ليست هدف الإنسان، والكتب المقدسة تقرر هذه الحقيقة في بساطة متناهية تدعو المرء إلى أن يتذكر على الفور الرمز القديم المشحون بالخوف وإظهار الرفض الذي تعلم الإنسان . قبل أن يغادر كهفه الحجري . أن يدعوه باسم الشيطان. فهذا المخلوق الناري المليء بالنوايا السيئة لا يتسبب في إيذاء أحد إيذاء مباشراً، ولكنه يقوده على الدوام إلى حتفه النهائي، وذلك بالضبط ما فعلته نظرية الكفاءة في جميع الحضارات.

إنها تأخذ بيد الإنسان إلى الجحيم، وتتحرك تحت السطح اللامع في صلادة مطلقة جنباً إلى جنب مع رغبة الإنسان نفسه في تحقيق الشيء المادي الأفضل ثم تأخذ بخناقه ذات يوم، ويكتشف في قبضتها أن (الشيطان) قد خدعه دون أن يدري.

وفي الولايات المتحدة حدث ذلك بصورة واضحة إلى حد لا يطاق، وبدأ الإنسان يلمس الشيطان بأطراف أصابعه عبر محنته غير المتوقعة في مدن أمريكا النظيفة المنسقة الشوارع. وأعلن برتراند راسل(*) في لهجة رثاء لا يخطئها السمع أن الحضارة المعاصرة قد وقعت مرة أخرى فريسة المرض القديم الغامض العميق الغور الذي وجده الإنسان في طريقه منذ أن

(*) فيلسوف وعالم اجتماع بريطاني، ولد سنة 1872. ونال جائزة نوبل في الآداب سنة 1950. اشتهر بتأسيسه سنة 1967 لمحكمة دولية ضد أمريكا عن جرائمها في فيتنام. توفي مطلع سنة 1970.

Twitter: @alqareah

تعلم المشي في مصر الفرعونية، ثم أعلن بعد ذلك أنه ليس ثمة مفر من (السقوط).. فماذا حدث بالتفصيل؟

أنا أعتقد أن الأمر يمكن تتبعه بيسر مطلق، وأعتقد أن كلمة (الكفاءة) تستطيع أن تعمل بمثابة مفتاح موثوق به لحل معظم أجزاء هذا اللغز، ولكن ذلك سوف يحتاج إلى بعض الوقت.

Twitter: @alqareah

الحلقة الثانية 2

بداية الطريق

مرة أخرى . وبرغبة متعمدة فى التكرار . ماذا تعني كلمة (الكفاءة)؟.

الإجابة المباشرة أنها (الهدف النهائى للحضارة)، أى نقطة الانطلاق الذي لا يتوقف أبداً على طريق التطور. ولكن هذا اللغز نفسه في حاجة إلى شرح، فالمرء لا يرى أصلاً ماذا تعني كلمة التطور.

وأنا أختار هنا وسيلة المقارنة لتحديد هذه الكلمات المعقدة في تاريخنا المعاصر، وأدعوكم إلى أن تضعوا كل شيء جانباً وتبحثوا برتابة عن (الفرق) الحقيقي بين إنسان القرن العشرين وبين أي فلاح مصري عاش في عصر الأهرام.

الفرق بالطبع لابد أن يظهر بوضوح، ولابد أن يلمسه المرء بأصابعه أيضاً إذا قرر مثلاً أن يختار قمة الحضارة في هذا

Twitter: @alqareah

القرن،(*) ويبدأ المقارنة بين الفلاح المصري مباشرة وبين أي مواطن أمريكي يعيش الآن في لوس أنجيلوس المضاءة بمصابيح النيون.

والفرق هنا يعنى بالضبط (أربعين قرناً من التطور). أي أربعين قرناً من المحاولة الدائبة لزيادة (الكفاءة) البشرية. والمرء يستطيع بعد ذلك أن يلمس كل شيء بأصابعه.

فالفلاح المصري كان يعمل بمحراث تجره الجاموسة، والفلاح الأمريكي المعاصر يعمل الآن بمحراث تزيد قوته عن قوة جميع الجواميس التي عاشت في عصر خوفو(**) بأسره. والفلاح المصري كان يرحل إلى (طيبة)(***) لكي يدفع الضرائب راكباً حماره الرمادي. والفلاح الأمريكي المعاصر يدفع ضرائبه الآن للعقل الإلكتروني الذي يقع في الطابق الأول من مبنى (الخزينة)، ويستطيع أيضاً أن يسافر إلى واشنطن لتقديم شكوى تخص ضرائبه ثم يعود في نفس اليوم، رغم أن المسافة - في الواقع - بين طيبة وبين قرية الفلاح المصري بنحو خمسة آلاف مرة.

هذا بالطبع فرق هائل، ولكنه - مع ذلك - ليس كل الفرق. فالفلاح المصري كان مصاباً بسوء التغذية، وكان أطفاله يموتون في الغالب خلال العام الأول، وكان يعيش في مغارة مبنية بالقش، ويعمل أكثر من خمس عشرة ساعة في اليوم، ويموت مثل بقية الحيوانات في مزرعة سيده.

والفلاح الأمريكي ليس مصاباً بسوء التغذية، بل إنه - في

(*) القرن العشرون.

(**) أحد فراعنة الأسرة الرابعة في مصر، وصاحب الهرم الأكبر.

(***) مدينة مصرية قديمة.

Twitter: @alqareah

الواقع - يزيد في حجمه عن أي فلاح آخر في التاريخ، وهو يظفر برعاية طبية كاملة، ويعيش في بيت صحي مزود بجهاز التدفئة، ويذهب لقضاء إجازته السنوية في جزر الكناري، ويستطيع أن يجعل رئيس الجمهورية يفقد مقعده إذا اكتشف أنه لم يعد يرغب في بقائه.

الفلاح الأمريكي (يتقدم) عن الفلاح المصري الذي عاش في عصر الأهرام بمسافة تزيد عن أربعين قرناً. هذا موجز القصة بأسرها. وهذا أيضاً ما ندعوه نحن بكلمة غامضة واحدة: (التطور).

فأين حدث (التطور) على وجه الضبط؟..

في المحراث؟

في الحمار الرمادي؟

في جهاز التدفئة؟

في السكة الحديد؟

في قوانين التأمين وسحب الثقة من رئيس الجمهورية؟

في الجرائد اليومية؟

الإجابة المتوقعة أنه حدث في كل شيء، ولكن تلك الإجابة ليست على أي حال صحيحة تماماً. والخطأ الذي تحمله كلّف الإنسان كل ما يعانيه الآن في جنته الوهمية. إن التطور حدث حقاً في كل شيء ما عدا (جهة) واحدة واضحة المعالم ظلت دائماً كما هي، وظلت بدون تغيير من أي نوع.

هذه الجهة تكمن في الداخل. في صدر الفلاح المصري والأمريكي معاً، وفي صدر كل إنسان آخر ضمته الحضارات

Twitter: @alqareah

المادية. إنها بالضبط (الرغبة ذاتها في تحقيق التطور)، فالفلاح المصري أيضاً كان يبحث عن محراث أكثر (كفاءة)، وعن منجل أسرع في تأدية خدمة الحصاد، وعن أي شيء يستطيع أن يضيفه إلى رصيده من (المواد) التي تزيد كفاءته. وهذه . في الواقع . نفس الرغبة التي دفعت الفلاح الأمريكي إلى اختراع محراثه الحديث واختراع الطائرة والعقل الإلكتروني. والتطور يحدث بالطبع في كل شيء يريد الإنسان أن يزيد كفاءته، ولكنه لا يحدث في نوع هذه الإرادة أبداً إلا في ظروف نادرة.

والقول بأن (التطور) يحدث في كل شيء يدعو إلى تجاهل هذه الحقيقة بطريقة لا تغتفر، ويجعل المرء يحس بأن ثمة أكذوبة هائلة في تاريخ هذا العالم تنمو بداخله في اطراد لكي تعمل على تدميره في نهاية المطاف إذا عجز عن إتلافها في الوقت المناسب.. ذلك الإحساس العميق الغور الذي ما فتئ الإنسان يواجهه برهبة منذ أن بدأ يعلق التعاويذ السحرية داخل كهفه البدائي لطرد (الشيطان) إلى أن بدأ محاولته المعاصرة المتسمة باليأس التي تمثلت في إقامة مبنى الأمم المتحدة(*) لتأدية نفس الهدف تقريباً.

إننا نحس بمصادر الشر في العالم. هذا واضح في كل المجتمعات المتطورة والبدائية على السواء. ونحس بأن علينا أن نتجنب الوقوع في تلك المصادر بطريقة أو بأخرى. والشعوب البدائية تعلق التعاويذ السحرية لتحقيق هذه الغاية، والشعوب غير البدائية تعمل بالأرقام لرفع مستوى الحياة وزيادة فرص التعليم لنفس الغاية أيضا، ولكنها جميعاً تحس بوجود (الشر)

(*) تأسست في 1945/10/24.

Twitter: @alqareah

وتحس بأنه ليس في طبيعة العالم، بل يأتي إليه من الخارج. وأن الإنسان يستطيع أن يبني عالماً حقيقياً بدون (الشيطان).

هذه إذن اللعبة من الداخل.

وهي في صيغة جديدة أكثر بساطة.. مجرد محاولة (لجعل) الحياة (محتملة)، وأنا هنا أريد أن أذكر كلمة أخرى - قديمة مثل الإنسان نفسه تقريباً - تأتي في كل اللغات لتعني أهداف هذه المحاولة في صيغة واحدة: (البحث عن السعادة). الهدف النهائي والعظيم والخالد.. هو السعادة. والهدف الأصلي في الواقع هو غريزة حب البقاء السعيد. وهنا يتحرك المرء عند منطقة الصفر في اتجاه لا شيء تقريباً. ويبدو العالم بأسره غير مُجد إلى حد كاف. ولكن الحقائق المسطحة تبقى صامدة إلى النهاية.

إن الإنسان قد جاء إلى هنا لكي يبقى ولديه أيضاً كل ما يحتاجه لتأمين هذا البقاء ضد معظم أعدائه. ولكن البقاء وحده لا يكفي الإنسان، إنه يريد أن يؤدي المهمة الشاقة دون حاجة إلى الألم. يريد أن يتجنب معاناة الوجود نفسه.. يريد - بكلمة بسيطة أخرى - أن (يعيش) أولاً .. ثم .. (يعيش سعيداً).

والإنسان من أجل ذلك اخترع المحراث بدل أن يحفر الأرض بأظافره، ثم وضع وراءه الجاموسة لكي تجره له بدل أن يضطر لجره بنفسه، ثم وضع جاموستين، ثم صنع محركاً يعادل قوة تسعين جاموسة، وما يزال يبحث عن مزيد من المحاريث.

والإنسان يفعل ذلك لكي يحافظ على بقائه أولاً، ولكي يدفع هذه المهمة بأكبر قدر من الكفاءة، أي بأقل قدر من الإرهاق،

Twitter: @alqareah

وهذا كله يدعوه المرء في القاموس (بالتطور) من باب الإيجاز، ولكنه في الواقع ليس اتجاهاً واحداً فقط.. إنه اتجاهان لتحقيق غاية واحدة: الجهة الأولى تطور روحي إلى الداخل، والجهة الثانية تطور مادي إلى الخارج.

وأنا أريد أن أقول ذلك هنا بصيغة أخرى: إن الإنسان جاء ليبقى ـ كما يقال ـ واكتشف بعد ذلك أن البقاء وحده لايحتمل بل لابد أن يؤدي المرء تلك المهمة بطريقة خاصة خالية من الألم. وقد اكتشف الإنسان اتجاهين مختلفين بطريقة غير أصيلة، اتجاهاً للبحث عن السعادة في الداخل، واتجاهاً للبحث عن السعادة في العالم، وقرر أن يمضى في تجربة هاتين اللعبتين المريعتين عبر كل الحضارات. وهو الآن ـ في هذا القرن(*) بالذات ـ يستطيع أن يلمس بأطراف أصابعه، ويستطيع أن يتنبأ بمدى الألم القادم في نهاية المطاف.

فالإنسان ـ بعد أربعين قرناً من البحث عن السعادة ـ ليس سعيداً!

والفلاح الأمريكي الذي يتقدم عن الفلاح المصري بأربعة آلاف عام من التطور والحضارة ليس في الواقع أكثر سعادة منه. إنهما معاً يعانيان آلام وجودهما بدرجة واحدة من القلق، وإذا كان ذلك الفلاح القديم مجرد معاناة تاريخية غير محددة، فإن الفلاح الأمريكي معاناة في عالمنا المعاصر يستطيع المرء أن يلمسها بأصابعه، ويستطيع أن يلتقط صورها على حافة الرصيف في مدينة لوس أنجلوس. إن هذا الإنسان المتطور يعاني من مشاكل وجوده إلى حد لا يطاق. وهو ـ رغم كل ما

(*) القرن العشرون.

Twitter: @alqareah

يملكه ـ لا يستطيع أن ينقذ نفسه من آلام حضارته أكثر مما استطاع ذلك الفلاح المصري القديم أن ينقذ نفسه من ظروف العالم البائسة في عصر الأهرام، وإذا كان ثمة حقيقة يمكن أن يلمسها المرء حقاً بأصابعه، فإن معاناة الإنسان المتحضر في الولايات المتحدة هي بالضبط تلك الحقيقة القبيحة.

وأنا هنا أريد أن أنقلها لكم بالتفصيل، وأريد أن أعتمد على الترجمة المباشرة من المصادر الأمريكية نفسها لكي لا أتورط في أحد فخاخ الدعاية المعادية. وأريد أن أتحدث عن (الحضارة الكبرى) التي نبتت خلال هذا العصر في الولايات المتحدة، وعن الرجل الأمريكي الذي بناها. وأنا أتمنى أن أتمكن من تحقيق ذلك قبل أن ينسى أحد ما، أنني لا أتعرض لأمريكا بالذات إلاّ باعتبارها القمة الحقيقية لحضارة العالم المعاصر. وأنني لا أملك هدفاً أكثر وضوحاً من نقل الواقع في أقرب صورة من الأصالة.

وموجز اللعبة بأسرها أن حضارة أمريكا جاءت لتحقيق حلم إنساني عظيم في (جعل الحياة محتملة) بزيادة عنصر الكفاءة في قوة المحراث وقوة الحمار الرمادي وقوة موس الحلاقة وقوة القوانين والأفكار والخطط، وحضارة أمريكا حققت شوطاً طويلاً جداً في هذا الطريق المعقد، وبدت على وشك أن تشرع في تحقيق بعض المعجزات الخاطفة.

فهل تحقق حلم الإنسان؟

Twitter: @alqareah

هل اقترب المواطن الأمريكي المعاصر الذي يملك القوة والكفاءة خطوة واحدة نحو هدفه النهائى؟

أنا أعتقد أنه ليس ثمة إجابات أفضل من أن يعرض المرء هنا نموذجاً كاملاً لمواطن أمريكى في الزحام.

Twitter: @alqareah

الحلقة الثالثة 3

الرجل الأمريكي

«تقرير مترجم عن: رالف وينتر»

مستر (أتشوك) عمره "44" سنة، ولكنه ما يزال يبدو مثل تمثال برونزي متناسق البناء، يملك بيتاً عصرياً في ضاحية (سان فرناندو) بمدينة لوس أنجيلوس مزود بحوض للسباحة وملعب للتنس، ولديه يخت شراعي في مرفأ (مارينا دي رافي) وزوجة شقراء وولدان وعربيتان في جاراج البيت.

والمستر (أتشوك) يعمل مهندساً في إحدى الشركات التي تقوم ببناء الأقمار الصناعية لحساب الجيش الأمريكى. عمل معقد، أليس كذلك؟ يستمر أحيانًا حتى بعد منتصف الليل خصوصاً إذا حدثت صعوبات مفاجئة أمام الفريق الذي يرأسه مستر (أتشوك) في أحد أقسام تطوير الأجهزة الإلكترونية، ولكنه يحب عمله على أي حال، ويحب أن يحل مشاكله التكنولوجية التي تبدو بالنسبة له مجرد تحديات صغيرة

Twitter: @alqareah

لقدراته العلمية غير المحدودة، ثم إنه - إلى جانب ذلك - يتقاضى راتباً معقولاً يصل إلى ستة وثلاثين ألف دولار في السنة، (مستر أتشوك) - بكلمة واحدة - رجل أمريكي مثالي من جميع الوجوه، وهو ينهض مبكراً كل يوم ويقفز في حوض السباحة المقام أمام البيت ويسبح عشرين دقيقة كاملة لكي يحافظ على لياقته البدنية، إلى جانب مباريات الجولف في عطلة الأسبوع والتمرينات الخاصة التي يعذب بها نفسه في البدروم(*) بين أدوات رفع الأثقال ورمي الجلة ونط الحبل، والمستر (أتشوك) يفعل ذلك لأنه يعرف أنّ عليه أن يحافظ على لياقته البدنية إذا كان يريد أن يحتفظ بعمله. فالمدينة مليئة بالمهندسين صغار السن الذين يستطيعون أن يحلّوا محله في أي وقت إذا رأت الشركة أنه لم يعد قادراً على القيام بأعباء عمله المرهق، وميدان المنافسة بين الشركات في لوس أنجيلوس لا يسمح قط بمراعاة شيء آخر سوى تأدية العمل المطلوب بالكفاءة المطلوبة في الوقت المطلوب.

ولكن المستر (أتشوك) ما يزال في حالة جيدة، وما يزال قادراً على نط الحبل خمس دقائق كاملة بلا توقف، وما يزال يحس بأن أحداً من المهندسين صغار السن الذين يعملون تحت قيادته لا يعرف عن الأقمار الصناعية أكثر منه، رغم أن هؤلاء المهندسين - في الواقع - قد وصلوا حديثاً من الجامعة وتلقوا تدريباً أفضل كثيراً مما تلقى المستر (أتشوك).

على أي حال، لقد مضى كل شيء في طريقه المرسوم بضع

(*) إنجليزية، تعني حجرة النوم، وتعارف البعض من العرب على تسمية الطابق ما تحت الأرضي من البناء، بهذا اللفظ!

Twitter: @alqareah

سنوات متوالية، وأطلقت الولايات المتحدة مجموعة من سفن الفضاء التي شارك المستر (أتشوك) في صنعها مع مئات الألوف من المهندسين الآخرين، واستقبل العالم سفن الفضاء الأمريكية بالتصفيق والذهول، وكتبت عنها الصحف في كل اللغات بالخطوط الحمراء، ولكن أحداً لم يكتب شيئاً عن المستر (أتشوك) . حسناً، لقد جاء ذلك الرجل الناجح إلى مقر عمله ذات يوم بعد أن سبح عشرين دقيقة كاملة في حوض السباحة الخاص، واستدعاه مدير الشركة إلى مكتبه وقدّم له كأساً من المارتيني، ثم قال له بالحرف الواحد: (أنا أعتقد أننا مضطرون للاستغناء عن خدماتك لأننا نزمع أن نعيد بناء الأقسام بطريقة أخرى، وسوف ندمج فريقك للعمل مع فريق مشابه في قسم الأجهزة الإلكترونية. إن علينا أن نضغط مصروفاتنا أمام الارتفاع المطرد في النفقات وندرة العقود الحكومية، وقد أسعدنا أن نعمل معك طوال هذه المدة، ولكننا لم نعد نملك الآن فرصة للاستفادة من خدماتك)، ثم صافحه مدير الشركة وربت على كتفه وحاول معه ببضع نكات قديمة غير مقنعة، ولكن المقابلة كانت قد انتهت، وكان المستر (أتشوك) قد فقد عمله على أي حال.

وفي اليوم التالي لم يسبح المستر (أتشوك) عشرين دقيقة في حوض السباحة الخاص، ولم ينهض من فراشه على الإطلاق. لقد ظل نائماً حتى الساعة العاشرة، ثم تناول إفطاره في غرفة الجلوس وقرأ بضع مقالات في مجلة (بلاي بوي)، وعند الظهر فعل المستر (أتشوك) شيئاً سخيفاً لم يفعله قط طوال حياته الماضية. لقد شرب وحده نصف زجاجة من

Twitter: @alqareah

الويسكي، وشرب بعد ذلك النصف الباقي، وفي عطلة الأسبوع شرب مرة أخرى وتشاجر مع زوجته الشقراء بشأن العطل الذي أصاب جهاز التدفئة في غرفة الجلوس، وقد فقدت السيدة أعصابها خلال المشاجرة ودعت زوجها (خنزيراً فظيعاً خائباً لا يستطيع أن يجد لنفسه عملاً يشغله سوى لعق زجاجة الويسكى)، ثم قالت له أيضاً، إنها نادمة على الزواج منه.

حسناً، لقد كانت السيدة سيئة المزاج إلى حد ما، وكانت تعرف أن المرء عندما يفقد عمله في الولايات المتحدة، يفقد في الواقع كل شيء، وقد وهبت نفسها لتقريع المستر (أتشوك) طوال الأسبوع الأول، ثم اكتشفت ذات يوم أن شعره الأسود قد استحال إلى شعلة بيضاء واحدة من الشيب، واكتشفت بالطبع أن المستر (أتشوك) كان يصبغ شعره مقابل خمسة عشر دولاراً للجلسة الواحدة، وأنه كان يفعل ذلك لكي لا يلاحظ أحد في الشركة أنه أصبح رجلاً عجوزاً. وكما يحدث عادة في معظم البيوت الأمريكية السعيدة، اتصلت السيدة بالطبيب النفساني وأخبرته أن زوجها مصاب (بعقدة نفسية)، وأنه يصبغ شعره ويسكر بنهم.. (ولا يريد أن يعمل شيئاً آخر على الإطلاق بما في ذلك إطعام «أطفاله»، سوى أن يستلقي على ظهره في غرفة الجلوس ويفرغ زجاجات الويسكي)، وكان المستر (أتشوك) - في الواقع - يملك أكثر من حاجته من الثروة، وكان حسابه في البنك ما يزال كبيراً إلى حد يبعث على الاطمئنان، وكان (أطفاله) ينالون أفضل طعام ممكن في العالم بأسره، إلى جانب أن كل واحد منهم كان يملك عربة سبورت خاصة به، ولكن

Twitter: @alqareah

ذلك لا يعني شيئاً في الولايات المتحدة ما دام المرء قد فقد عمله.

وكانت السيدة تعرف هذه الحقيقة بطريقة خالية من الشك، وجاء المستر (أتشوك) إلى عيادة الطبيب النفساني واستلقى على ظهره فوق (الكوتش)(*) وطفق ينتحب مثل طفل في الخامسة من عمره، ثم قال للطبيب: (أنا بائس وتعس وأريد أن أموت. لقد فقدت عملي ولم يعد لديّ ثمة ما أفعله هنا وأريد أن أموت. إن الرجل لا ينقذه سوى الموت إذا فقد «عمله».. وأنا فقدت عملي وأريد أن أموت).

كان المستر (أتشوك) الذي يبدو مثل تمثال برونزي متناسق البناء في حالة مزرية، وكان التغير المفاجئ الذي حدث في حياته يبدو فظيعاً إلى حد لا يمكن تصديقه، فالرجل السعيد الممتلئ ثقة بنفسه أصبح الآن ـ خلال أسبوع واحد بدون عمل ـ مجرد عجوز محطم القلب تخنقه وحدته في بيته العصري تحت رعاية زوجته العصرية، ولم يعد يسبح عشرين دقيقة في حوض السباحة الخاص، ولم يعد يسبح دقيقة واحدة، ولم يعد يذهب للعب الجولف أو نط الحبل في «البدروم»، ولم يعد يذهب لكي يصبغ شعره أيضاً. لقد انتهى كلية خلال أسبوع واحد رغم أن حسابه في البنك ما يزال يضم في الواقع مجموعة من الأرقام التي تبعث على الثقة، وسأله طبيبه النفساني عن ثروته، فأشاح المستر (أتشوك) بوجهه وقال بجفاء: (نصف مليون دولار، هذا كل ما أملكه، لقد فقدت عملي مبكراً جداً، إنني لم أتصور أن الشركة تستطيع أن تتخلى عني، يا إلهي ماذا أستطيع أن أفعل؟. أنا أريد أن أموت.

(*) إنجليزية، تعني سريراً أو أريكة.

Twitter: @alqareah

هذا كل ما أستطيع أن أفعله)، وأعطاه الطبيب علبة من الحبوب المهدئة للأعصاب، وأعطاه أيضاً محاضرة طويلة عن خرافة (الثقة بالنفس بدون عمل، وقال له: إن ثروته الحالية لا يمكن إنفاقها خلال الخمسين عاماً القادمة، وإنه يستطيع أن يعود إلى السباحة عشرين دقيقة هادئ البال، ويستطيع أن يعود لنط الحبل وممارسة حياته بالطريقة التي تحلو له لأن ذلك من حقه، ولأنه عمل بما فيه الكفاية طوال حياته الماضية ولم يعد ثمة ما يمنعه من الاستمتاع بالراحة). وهز المستر (أتشوك) رأسه بمرارة وغادر عيادة الطبيب إلى غرفة الجلوس مباشرة، وشرب هناك زجاجة كاملة من الويسكي، ثم تورط في مشاجرة مع زوجته التي كانت تطالبه بتغيير عربتها إلى موديل جديد، وقال لها بالحرف الواحد: (أنت عاهرة خرقاء مزرية لا تعرف شيئاً في هذا العالم سوى أن تنفق نقود زوجها العاطل عن العمل).

حسناً، لقد كان المستر (أتشوك) مخموراً إلى حد غير لائق، وكان بوسعه في الواقع أن يستبدل عربة زوجته - إذا كان ذلك ضرورياً حقاً - دون أن يصاب بالفقر، ولكن المرء لابد أن يعرف أولاً ماذا يعني البقاء بدون عمل في الولايات المتحدة لكي يفهم موقف المستر (أتشوك) القاسي تجاه السيدة زوجته، وفي المساء استمرت المشاجرة حول جهاز التلفزيون فيما كان الزوجان السعيدان يشاهدان أحد أفلام رعاة البقر.

في أمريكا الحديثة لم يعد ثمة أثر لرعاة البقر، ولم يعد القانون الغابي الذي ساد مبارزات الغرب يظفر بالاهتمام. ولكن أمريكا تملك الآن قانوناً آخر أكثر إيغالاً في الضراوة، تملك

Twitter: @alqareah

الصراع من أجل (الدولار)، من أجل (العمل).. من أجل (حركة الآلة إلى الأمام)، وهذا الصراع المشوق لا يبدو أقل إثارة من مبارزات رعاة البقر في الغرب. إنه ـ في الواقع ـ أكثر ضراوة وأكثر عمقاً ونتانة من أي قانون آخر عرفته أية حضارة في التاريخ، وليس ثمة أحد هنا لا يخضع له، وليس ثمة أحد يحس بالأمن إلى جانبه. إن المستر (أتشوك) ـ الذي يجلس في بيته العصري بجانب زوجته العصرية ـ يعرف ذلك بالضبط، ويعرف أن إحساسه الهائل بالرعب لا يقل بأي حال عن إحساس راعي البقر البائس الذي يظهر فوق شاشة التلفزيون الآن فاقداً رشده كلية تحت ضربات (الشريف)(*) في صالون القرية.

وراقب المستر (أتشوك) راعي البقر المطروح على الأرض في هدوء، ثم صعد إلى غرفته واستلقى على السرير وأفرغ مسدسه في أذنه. لقد انتحر المستر (أتشوك) عند الساعة الحادية عشرة والنصف من مساء يوم الأحد الموافق 13 أبريل من هذا العام(**) ونشر الخبر في الصحيفة المحلية بهذه الصيغة تقريباً، وتمت مراسيم الدفن بطريقة تليق بأي مواطن أمريكي يملك نصف مليون دولار.

هذه قصة مواطن أمريكي في الزحام، قصة غير واضحة تماماً بالنسبة للقارئ الليبي الذي لا يستطيع أن يتصور تفاصيل الشيء الفظيع في داخل المستر (أتشوك)، ذلك غير الوحشي الوحش غير المرئي الحافل بالمرارة واليأس الذي يحدث في صدر إنسان سعيد من جميع الوجوه ويتركه يحطم رأسه برصاص مسدسه. ولكنها في أمريكا قصة عادية تتكرر كل يوم.

(*) هو الشخص المخول بتطبيق القانون في نطاق كل مقاطعة أمريكية.

(**) عام 1969 . «تاريخ كتابة الدراسة».

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الرابعة 4

نعمة تقدّمنا

«تقرير مترجم عن: رالف وينتر»

الساعة السابعة صباحاً، كل شيء ما يزال على ما يرام، والحرب مع الصين لم تبدأ بعد رغم تنبؤات جميع الصحف، والمستر (جورج بوب) يأخذ مكانه وراء مائدة الإفطار ويصفر لحن أغنيته المفضلة.

هكذا كان يفعل كل يوم قبل أن يتناول إفطاره لكي يعرف بقية أفراد العائلة أنه (في أحسن حالاته) وأنه لا يريد شيئاً من العالم سوى أن يتركه ينعم بحياته السعيدة بين أطفاله الثلاثة وحديقة بيته وزوجته (روث) الفاتنة، ولكن المستر (جورج بوب) ـ في الواقع ـ كان يصفر رغم أنفه، كان يعرف أنه لابد أن يفعل ذلك محافظة على (روح المرح) التي لابد أن تسود مائدة الإفطار في كل بيت في العالم يسكنه مواطن من

Twitter: @alqareah

الولايات المتحدة، أما من الداخل فقد كان المستر (جورج بوب) في أسوأ حالاته. وكان قد سمع لتوه أن السيدة زوجته تخونه مع المهندس العازب الذي يسكن في الدور السفلي، وقد قال له المخبر السري الذي أطلقه وراء زوجته إن السيدة بدأت هذه اللعبة منذ شهر أبريل الماضي(*) في نفس الليلة التي أقام خلالها المستر (جورج بوب) إحدى حفلاته ودعا إليها جاره المهندس.

وكان الخبر سخيفاً إلى حد لا يطاق، وكانت السيدة (روث) تجلس عند مائدة الإفطار وتشع فتنة كعادتها. وقد راقبها (جورج بوب) من طرف عينه دون أن يتوقف عن الصفير، ثم قال في ذات نفسه إن أسوأ ما يمكن أن يقع لأي إنسان في العالم لابد أن يتمثل في إرغامه على الصفير في الصباح بعد أن يسمع في الليلة السابقة أن السيدة زوجته قد أصبحت تخص رجلاً آخر.

وقد قال (جورج بوب) ذلك للمرة الثانية عندما جلس وراء مكتبه الفخم في (وول ستريت)، ثم قاله للمرة الثالثة فيما كانت سكرتيرته تضع أمامه جدول المقابلات، وظل يردده طوال النهار. وعندما عاد في الساعة السادسة عرج على البار المجاور - لأول مرة منذ زواجه بالسيدة روث - وطلب كأساً من البراندي، ثم طلب نصف زجاجة وخبط المائدة بقبضته وقال بصوت عالي إنه يحس بشيء لزج في صدره، وأن ذلك الشيء يحرقه ببشاعة إلى حد لا يحتمل. وفي صباح اليوم التالي كان (جورج بوب) ما يزال يصفر لحن أغنيته المفضلة.

(*) من سنة 1969 .

Twitter: @alqareah

وكان قد تذكر خلال الليل - فيما بدأت روث تتنفس بجانبه مثل ملاك كلّي البراءة - أنه فعل من أجلها كل شيء بوسعه، وحقق لها معظم أحلامها، وأنه لم يفعل شيئاً واحداً تجاهها يستحق هذا العقاب البشع، ثم تذكر أيضاً بدايته معها، وليالي الحب الطويلة التي أنفقاها معاً طوال شهر العسل في ولاية فلوريدا. ولكن المستر (جورج بوب) لم يتذكر تلك الليلة ما حدث بعد شهر العسل. لقد خطر له ذلك فجأة عندما جلس وراء مكتبه الفخم في (وول ستريت). وتذكر في لحظة مشوبة بالشعور بالذنب أنه نسي روث كلية بمجرد أن عاد من رحلة شهر العسل، وأن مشاغله الهائلة في حي المال طفقت تأخذ معظم وقته، حتى اضطر في النهاية إلى الغياب عن البيت يومين في الأسبوع، ثم اضطر للغياب أكثر من ذلك دون أن يستطيع فعل أي شيء حيال مشاغله الهائلة أو حيال (روث) التي كانت تجلس وحيدة معظم أيام الأسبوع في بيته العصري.

وقد بذل كل ما وسعه لكي يجعل ذلك البيت عصرياً من جميع الوجوه، وحاول أن يبدّد وحدة زوجته أيضاً بإعداد حوض السباحة عند المدخل وشراء القطعة المجاورة من المزرعة لملعب الجولف وشراء القارب البخاري. ثم اشترى لها أيضاً حصاناً عربياً لكي تتسلى بركوبه في الحديقة، واشترى لها سيارة من طراز (ثندر بيرد) موديل 69، وتركها تنجب ثلاثة أولاد لقتل الوحدة. ولكن ذلك كله - فيما يبدو - لم يكن كافياً لأن يحتفظ المرء بالسيدة روث.

لقد تذكر (جورج بوب) هذه الحقيقة في البار عندما عاد في الساعة السادسة، وخبط المائدة بقبضته وقال بصوت عالٍ

Twitter: @alqareah

على مسمع من الرواد إن المرأة الأمريكية عاهرة بالسليقة، ثم انغمس في نقاش ودي مع بعض الرواد السكارى الذين يشاركونه هذا الرأي. وقد اتفقوا خلال الزجاجة الثانية من البراندي أن أفضل وسيلة في العالم لكي يحتفظ المرء بزوجته هي أن يقفل عليها باب البيت كما يفعل الرجال في الشرق. وقد قال (جورج بوب) بعد ذلك لنفسه إنه كان مذنباً تجاه روث، وإنه كان من واجبه أن يقفل عليها باب بيته العصري.

ولكن ذلك في الواقع لم يكن بإمكان أحد أن يفعله في الولايات المتحدة.

فالمرأة في الشرق لا تملك شيئاً من الحقوق التي تملكها المرأة الأمريكية، والرجل يستطيع بالطبع أن يتركها وحيدة في بيته غير العصري كما يشاء دون أن يخشى لعبة الخيانة الزوجية بطريقة جادة ما دام في وسعه أن يقفل عليها باب البيت أو - على الأقل - يمنعها من عبوره ويتركها على مصراعيه.. أما في الولايات المتحدة فإن الأمر بالطبع يختلف كلية.

إن المستر (جورج بوب) يعرف ذلك مثل أصدقائه في البار، ويعرف أن الرجل في الولايات المتحدة (لابد) أن يعمل معظم الوقت لكي يربح ما يكفي أسرته، (ولابد) أن يضطر إلى ترك زوجته وحيدة أو يسمح لها بالعمل لقتل الوقت. وأن النكتة السخيفة التي تحدث دائماً تقريباً هي أن يكتشف الرجل أنه (لابد) أن يدخل في منافسة مضنية مع جميع الرجال الذين تلتقي بهم زوجته لكي لا يسرقها أحد منهم.

Twitter: @alqareah

فالمرأة العصرية في الولايات المتحدة تستطيع أن تترك زوجها في أي وقت تشاء، والسأم من الزواج مرض قديم لم يجد له أحد علاجاً حاسماً حتى الآن. والمرأة الأمريكية تشعر بالسأم في معظم الأحيان، وتتورط في الدخول في مغامرات أكثر إثارة للسأم، ولكنها تواصل تلك اللعبة المشينة لأنها ببساطة (لابد) أن تفعل ذلك. إن العالم من حولها مليء بالرجال، والموضة تجرها من أنفها بلا انقطاع، وحرية الحركة المتوفرة، والبراندي، والتمدن، أجل التمدن، يجر المرأة الأمريكية من أنفها مثل ثور الساقية.

لقد قال (جورج بوب) ذلك لأصدقائه في البار عندما شرب نصف الزجاجة الثانية، وقال لهم أيضاً إن المرء لا يجد شيئاً يفعله سوى أن يجلس في البار ويضع يده على خده. فأنت تحب أسرتك، وتحب أن تعمل من أجلها كل ما في وسعك.. وأنت تجلس طوال النهار في (وول ستريت) تبحث عن مزيد من الفرص لتحقيق مزيد من الحياة الطيبة، ولكنك لابد أن تعترف بأن زوجتك البائسة لا تستطيع أن تعلق قلبها معك طوال النهار لمجرد قدرتك على توفير النقود لها. إنها بالطبع تحتاج إلى أكثر من شيء آخر، وأنت لا تملك شيئاً آخر سوى ما تحصل عليه من (وول ستريت). إن أية امرأة في العالم مستعدة لأن تفعل أي شيء مقابل قليل من الإثارة.. أية امرأة وأي رجل أيضا، إن كل إنسان وحيد مستعد لأن يفعل أي شيء ضد وحدته. أليس كذلك؟

حسناً، ماذا يتوقع المرء من زوجته أن تفعل بعد مضي

Twitter: @alqareah

سنوات من الزواج الروتيني والحفلات والأصدقاء والموضة والملل؟

هكذا تساءل (جورج بوب) في البار وخبط المائدة بقبضته، ثم شرب باقي الزجاجة وعاد إلى بيته العصري، وكانت روث قد آوت إلى فراشها منذ بضع ساعات، وكانت قد تظاهرت بالغضب عندما سمعته يدخل الغرفة ولكنها لم تقل له شيئاً. لقد اكتفت بإطلاق (أف) حارة ملتهبة لإظهار الضيق، ثم استدارت على جنبها الأيسر وواصلت نومها.

ودس (جورج بوب) نفسه تحت ملاءة السرير البيضاء دون أن يقول شيئاً أيضاً، وتذكر خلال الليل أن (روث) كانت تحبه إلى درجة العبادة، وكانت تسهر في انتظار عودته من (وول ستريت) إلى الفجر أحياناً لكي تحدثه عما فعل طفلهما (بوب) طوال النهار، أو تحدثه عن مشاجرة جارهما العجوز مع طباخه الأسباني الأصل. وكان (جورج بوب) . إذ ذاك . يتأوه بتعب ويقول لها إن عليه أن تتركه ينام دون حاجة إلى إزعاجه بقصصها غير المسلية.

أجل. كان عالم روث غير مسل على الإطلاق، ولكنها كانت تحب أن تتحدث مع (جورج بوب) ،ولم يكن لديها ثمة ما تقوله سوى ما يحدث في ذلك العالم البسيط، ثم مرت السنة الخامسة وتعلمت روث أن تترك زوجها ينام دون حاجة إلى إزعاجه بقصصها غير المسلية، ثم مرت السنة السادسة وبدأت روث تتشاجر مع زوجها وتشتمه أحياناً، ثم مرت السنة السابعة واكتشفت روث أنها لم تعد تحب زوجها إلى درجة العبادة، ثم مرت السنة الثامنة ووقعت روث فريسة الملل

Twitter: @alqareah

والوحدة، واكتشفت أنها لم تفعل شيئاً طوال السنوات الماضية سوى الجلوس في انتظار (جورج بوب) المصاب بالتعب والإرهاق، ثم مرت السنة التاسعة وتقابلت روث صدفة مع جارهما المهندس، واكتشفت من أقواله أنها جميلة إلى حد لا يصدق، وأن المرء معرض لأن يقع في حبها بمجرد أن تقع عيناه عليها.

وسقطت روث في حب المهندس الشاعر. لقد حدث ذلك رغم أنفها، فهي لا تضمر شيئاً تجاه (جورج بوب)، ولا تريد أن تتخلى عنه أيضا، إن كل ما حدث أن روث اعتقدت في لحظة ما أنها تستطيع أن تنعم بقليل من الإثارة داخل حياتها المملة دون أن تعرض (جورج بوب) لأية أخطار، وقد تعودت أن تتسلل إلى شقة المهندس خلال ساعات النهار تقضي معه (وقتاً طيباً) حقيقياً، ثم تعود لكي تنتظر زوجها العائد من (وول ستريت)، ولم تكن تعرف بالطبع أن ذلك سوف يبدو واضحاً في سلوكها إلى حدّ لا يطاق، وأن المرء لا يستطيع في الواقع أن يلعب هكذا في الخفاء إلى الأبد، وأن (جورج بوب) سوف يطلق وراءها مخبراً سرياً ويعرف منه كل شيء.

إن السيدة روث لم تتصور ذلك مطلقاً، ولكنه حدث على أي حال، وعرف (جورج بوب) كل شيء، وعاد في تلك الليلة مخموراً إلى البيت ودس نفسه في الفراش دون أن يقول شيئاً، ثم نهض في الصباح وتناول إفطاره كالعادة وطفق يصفر أمام أطفاله لحن أغنيته المفضلة.

وفي يوم السبت الموافق العاشر من مايو هذا العام(*)

(*) 1969.

Twitter: @alqareah

اكتشف رجال الشرطة جثة السيدة روث والمهندس العازب في الدور السفلي، واكتشفوا أيضاً أن (جورج بوب) في غمرة غضبه لم يبال بأن يترك وراءه من الأدلة ما يكفي لإدانته بارتكاب الجريمة.

ولكن ماذا تعني كلمة الإدانة بارتكاب الجريمة هنا؟!

هذه قصة أخرى من الولايات المتحدة تبدو بالنسبة للقارئ الليبي مجرد حادثة مزرية تقع صدفة على بعد آلاف الأميال، ولكنها في مدينة نيويورك قصة عادية تتكرر كل يوم، فثمة أربع من كل عشر نساء في أمريكا يرتكبن الخيانة الزوجية خلال الأعوام العشرة الأولى من الزواج، وثمة جريمة قتل احدة في كل أربع حالات.

وهذا كله يتم بالطبع في أعظم (حضارة) في التاريخ.

Twitter: @alqareah

الحلقة الخامسة 5

عن نساء أمريكا

«تقرير مترجم عن: رالف رينتر»

مسز (كارمن) فتاة أمريكية من مواليد ولاية فرجينيا، جاءت للبحث عن عمل في مدينة نيويورك، واكتشفها المليونير (هـ. م. هيفنر) الذي يتولى إصدار مجلة بلاي بوي، وقد دعاها للعشاء معه، ثم أخذها للرقص في إحدى حفلاته الخاصة ومنحها اسم (كارمن) بدل اسمها القديم الذي لا يستعمله أحد سوى مزارعي التبغ في فرجينيا، وعندما انتهت الحفلة ذهبت المسز (كارمن) مع المليونير إلى بيته الريفي وقضت عطلة نهاية الأسبوع في صحبته، ثم انتهى كل شيء في اليوم التالي وعادت المسز (كارمن) إلى غرفتها الصغيرة في إحدى عربات الأجرة، واكتشفت عبر عتمة الغرفة المملة أن الحلم المبهج الذي عاشته في صحبة المليونير كان في الواقع مجرد حلم من جميع الوجوه، وأن المستر (هيفنر) المثير قد اختفى من حياتها إلى

Twitter: @alqareah

الأبد كعادته دائماً مع كل فتاة تقضي معه عطلة الأسبوع، لولا أنه هذه المرة ترك وراءه هدية فظيعة تتحرك في أحشاء المسز (كارمن) التي جاءت من ولاية فرجينيا للبحث عن عمل في مدينة نيويورك.

واستولى الرعب على الفتاة الفلاحة، وانطلقت تجري إلى مكتب المستر (هيفنر) في مبنى مجلته الواسعة الانتشار، ونقلت إليه النبأ وسط عاصفة من الدموع، ولكن المليونير المجرب لم يزد على أن منحها ابتسامة صغيرة ثم اتصل بإحدى سكرتيراته وجعلها ترتب له ميعاداً عاجلاً مع أحد أطباء الإجهاض، وتم ذلك كله في نفس اليوم، وعادت المسز (كارمن) إلى غرفتها المتواضعة بدون ذلك الشيء الذي كان يتحرك في بطنها.

لقد كان الأمر غاية في البساطة، وكان الناس في مدينة نيويورك يحلون مشاكلهم في يسر لا يصدق، وأجرت المسز (كارمن) بعد ذلك ثلاث عمليات إجهاض أخرى قبل أن ينتهي عامها الأول في نيويورك، وعرفت خلال ذلك العام أربعة وسبعين رجلاً ذهبت معهم جميعاً إلى بيوتهم الريفية لقضاء عطلة الأسبوع، ثم عرفت مائة واثنين وعشرين رجلاً آخر خلال العام التالي.

وكانت المسز (كارمن) تفعل ذلك لأنها كانت تعمل في فرع خاص لتصوير أفلام (البورنوغرفي)، وهي أفلام تقتصر على تصوير ما يحدث في السرير فقط، وكانت تضطر إلى أن تنام مع أي رجل يحضره المخرج معه، وفي ذات يوم أحضر المخرج معه رجلاً من ولاية فرجينيا، وقد نامت معه المسز (كارمن)

Twitter: @alqareah

تحت أضواء الكاميرات الساطعة، ثم دعته إلى غرفتها وقدمت له زجاجة من الويسكي، واكتشفت خلال حديثه معها أنه في الواقع ابن أختها (جالد) الذي نزح إلى نيويورك منذ خمس سنوات، ولكن المسز (كارمن) لم تقل له ذلك، لقد أخفت هذه الحقيقة المقززة مع بقية الحقائق الأخرى التي تحتفظ بها داخل رأسها المصاب بالدوار، وقررت أن تواصل عملها وتواصل الصمود أمام تلك الظروف المعقدة مفرغة جهداً هائلاً لكي تحتفظ بقليل من صفاء عقلها، وقد فعلت ذلك بضع سنوات أخرى، وعرفت مزيداً من الرجال ومارست مزيداً من الحب المقزز وسكرت بنهم، وصرخت ورفضت ومزقت ملابسها، ثم وقع المقدور ذات يوم وانهارت المخلوقة البائسة تحت ضغط عالمها غير المعقول، واكتشف أحد الحراس الليليين في محطة القطار جثتها الممزقة على القضبان بجانب حقيبتها الصغيرة التي تركت بداخلها رسالة تقول فيها: (أنا متعبة، هذا كل ما في الأمر، فلا تدعوا أحداً يثير ضجة حول مصرعي)، ولكن مصرع المسز (كارمن) أثار ضجة هائلة على أي حال، ولم يتم ذلك من أجلها بالذات، بل تم من أجل التقرير الذي نقلته الشرطة من مصلحة الإحصاء عن فتيات أمريكا والصور العارية وحمّى الجنس والحفلات الخاصة وعمليات الإجهاض وطاحونة العالم المفجع في الولايات المتحدة. وقد قال التقرير في مقدمته إن ثمة ثلاثة ملايين فتاة أمريكية يعملن . مثل المسز (كارمن) . في صناعة الصور العارية، وأنهن جميعاً يتعاطين الدعارة، ولكن السلطات المسؤولة لا تستطيع أن تعاملهن طبقاً لنصوص القانون الخاص ببقية العاهرات لأن

Twitter: @alqareah

صناعة الصور العارية تعتبر حرفة معترفاً بها في المجلات المتخصصة.

ثم قال التقرير إن هذا العدد الهائل من (النساء المريبات السلوك) الذي يتوفر في الولايات المتحدة قد يفوق . في الواقع . عدد جميع العاهرات اللائي عشن في العالم بين عصر الأهرام وبين قيام إمبراطورية الإسكندر، وأن مكاتب الإعلان وحدها تملك أكثر من مليون فتاة أمريكية تتراوح أعمارهن بين الثامنة عشرة وبين الثلاثين، ويعتمدن في كسب قوتهن اليومي على بيع أجسادهن العارية للمصورين المحترفين أو يتعاطين الدعارة. ثم قال التقرير إن واحدة من كل عشر فتيات أمريكيات تبدأ حياتها بالعمل في مكاتب الإعلان أو معامل المصورين المحترفين أو مجلات الجنس أو صناعة الأفلام العارية، وأن خمساً من كل عشر فتيات يعملن في هذه الفروع.. يتورطن في عملية إجهاض خلال العام الأول من بدء عملهن.

والمرء قد تعتريه الدهشة عندما يعرف أن مكاتب الإعلان التي تقف وراء هذه الكارثة في الولايات المتحدة ليست في الواقع محلات دعارة من أي نوع، بل هي مكاتب شبه رسمية يديرها الخبراء المتخصصون في الإعلان وتعتمد عليها معظم الصناعات الأمريكية في الدعاية لمنتجاتها، وتتمتع دائماً بسمعة مثيرة على الأقل بين أفراد الشعب الأمريكي، وهي تعمل عادة بالتعاون مع المؤسسات الصحفية الكبيرة ودور الطباعة ومحطات التلفزيون، وتقوم بوضع التصميمات المطلوبة للإعلان عن أية سلعة، ولكن المشكلة أن هذه المكاتب تورطت منذ البداية في نظرية مؤداها.. (أن الإعلان لابد أن

Twitter: @alqareah

«يلفت» نظر الزبون بأي ثمن)، وأن أفضل وسيلة لتحقيق هذه اللعبة أن تضع بجانب سلعتك صورة امرأة عارية أو شبه عارية على الأقل. وقد انفجرت الفكرة مثل بركان خرافي في أرجاء العالم بأسره، أما في الولايات المتحدة فقد انفجرت بطريقة أكثر سوءاً، والتقط المصورون في عام واحد مائة وسبعين مليون صورة.. (عارية أو شبه عارية) لوضعها بجانب سلع المصانع من أمواس الحلاقة إلى طائرات البوينج، ودخلت ثلاثة ملايين فتاة أمريكية مجال العمل في هذه الحرفة الجديدة التي ظلت على الدوام بمثابة حلم لذيذ يبدأ عادة بإعلان صغير عن صابون «لوكس»، وينتهي . أو على الأقل من المفروض أن ينتهي . في استوديوهات هوليود. وفي العادة تحدث الكارثة عند وسط الطريق. فالفتاة التي تحمل أحلامها فوق كتفها وتحضر إلى مكتب الإعلان بحثاً عن (عمل لجسدها)، تعرف بالسليقة أن عليها أن تثبت أولاً أنها تملك جسداً يستحق النشر، فالمرء لا يستطيع أن يضع بجانب سلعته صورة عجوز مقوسة الساقين أو فتاة نحيفة الصدر تثير تقزز قارئ الإعلان.. إنك لابد أن تضع هناك أفضل ما تجده، وفتيات أمريكا يعرفن ذلك بالطبع ويعملن كل ما في وسعهن لتحقيق الشروط المطلوبة.

في مقدمة هذه الشروط أن تعرف الفتاة مقدماً . وبطريقة خالية من الشك . أن مكتب الإعلان لا يعطيها عملاً لنفسها، بل لجسدها، وأنها لابد أن تستعد لكي تعيش مع هذه الحقيقة المقززة.. فكل حرفة في العالم يمارسها المرء لإبداء مهارة ما، إلا حرفة الموديل العاري، فهي في الواقع . مثل حرفة البغاء بالضبط . يمارسها الجسد بدون حاجة إلى المهارات.

Twitter: @alqareah

وهنا يضع المرء يده على مفتاح اللعبة المدهشة، فالفتاة الأمريكية التي تستلقي عارية أو شبه عارية أمام كاميرا أحد المصورين المحترفين تستطيع أن تربح في الساعة الواحدة مبلغاً يتراوح بين خمسة دولارات وبين ألف دولار، وهي تعرف أن هذا الفرق الهائل في السعر لا يحدث طبقاً لأية شروط خاصة سوى (تكامل جسدها وقدرته على إبداء أكبر قدر ممكن من البضاعة المطلوبة).. والبضاعة المطلوبة ليست مهارات فنية أو مستويات عقلية خاصة، بل - بكلمة فظيعة واحدة - جنس.. ذلك يعني على وجه التقريب نفس الميزة التي تحتاجها المرأة العاهرة لكي تربح قوتها اليومي، ونفس الميزة التي كانت تحتاج إليها (الجارية) لكي تنال رضاء المشتري في الأزمان القديمة المقززة التي كانت المرأة تعرض فيها للبيع على منصة عالية في وسط سوق الرقيق. إلى هذا الحد بلغ (تطوير) المرأة الأمريكية، وأصبحت مرة أخرى جارية معروضة للبيع، ولكنها هذه المرة لا تضع قناعاً فوق وجهها مثل جواري الشرق البائسات، ولا تخص رجلاً واحداً فقط، ولا تحتاج إلى أن تتورط في إنجاب الأطفال رغم أنفها كلما قرر سيدها أن يقضي ليلة في سريرها، ولا تحتاج أيضاً إلى أن تتسول نفقاتها من أحد.

إن المرأة الأمريكية الحديثة تملك من نقود الولايات المتحدة أكثر مما يملك الرجال، وهذه الحقيقة ليست مجرد حلم قديم يداعب أخيلة نساء العالم في باقي الحضارات، إنها في الولايات المتحدة حقيقة واقعة تسندها الإحصائيات الرسمية وتقريرات وزارة الخزانة، فنساء أمريكا يملكن 80٪ من مجموع

Twitter: @alqareah

الدخل القومي، ويملكن 75٪ من قيمة المشتريات، ويملكن 65٪ من أوراق البنكنوت.. ويملكن 50٪ من مجموع الأسهم المباعة، ويمتلكن من قيمة الأوراق النقدية ما يعادل هذا الرقم (100000000000) أي مائة ألف مليون دولار، ويمتلكن أيضاً 45 ٪ من مساحة الأراضي. إنهن أغنى نساء في التاريخ، وإذا قرر المرء أن يختار سبيل المقارنة لإظهار مدى هذا الغنى فإنه يستطيع أن يتصور بهدوء أن نساء أمريكا يملكن من النقود أكثر مما توفر لدى الإمبراطورية الرومانية منذ قيامها إلى سقوطها. ومع ذلك.. فالمرأة الأمريكية ما تزال مجرد جارية، لقد بلغ بها (تطورها الحضارى) إلى هذا الحد مرة أخرى، وأعادها إلى المنصة العارية التي تعرض فوقها الجواري للبيع في وسط سوق الرقيق.

ولكن السوق ـ هذه المرة ـ ساخنة إلى حد لا يصدق، والمشترين أكثر ضراوة، والنخاس أعلى صوتاً، والحياة نفسها تبدو من نوافذ الطابق الخمسين معتمة وفظيعة بطريقة لم ترها الجواري في أي عصر مضى.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة السادسة 6

سيلفا معروضة للبيع

«تقرير مترجم عن: رالف وينتر»

«أجل أنا امرأة عاهرة».

قالت (سيلفا) في مكتب المحقق وبصقت على الأرض: (أنت تريد أن تسمع ذلك لأنك مجرد شرطي مضحك، ولأنهم هنا يدفعون لك أجرك لكي تكتب في دفترك المزري إنني امرأة عاهرة.. حسناً، اكتب ذلك الآن. إنني أعترف لك بأنني حقاً امرأة عاهرة، وإنني أذهب عادة مع أول خنزير يدفع لي عشرة دولارات دون أن أسأله عن اسمه).

ثم قالت (سيلفا) للمحقق: (إن ذلك يبدو فظيعاً، أليس كذلك؟ أعني أن يذهب المرء إلى سرير خنزير لا يعرف اسمه، ولكن دعني أعترف لك لكي تكتب ذلك في دفترك المزري أيضاً، إن المرء لا يحتاج إلى معرفة اسم أحد لكي يتبادل معه

Twitter: @alqareah

الحب مقابل عشرة دولارات، ذلك عمل لا يحتاج إلى اسم على الإطلاق، إن المرء يغمض عينيه ويشد قامته وينطلق بجانب خنزيره إلى أي مكان، ذلك ما يحدث بالضبط.. ثم يقبض المرء عشرة دولارات ويعود وحده في الحافلة، إنني لم أشعر قط إنني في حاجة إلى أن أعرف اسم أحد من الرجال الذين أذهب معهم إلى بيوتهم، ذلك ليس كذباً يا حضرة المحقق المضحك، أنني لم أكن أهتم بمعرفتهم لأنني كنت مشغولة بالتعرف على نفسي).

ثم قالت (سيلفا) وهي تنظر من النافذة: (كنت مجرد قردة ملونة، إن المرء لا يستطيع أن يتصور ماذا يحدث في داخله عندما يكتشف ذات يوم أنه مجرد قردة ملونة، ولكني رأيت ذلك بعيني رأسي في المرآة المقامة على مدخل البار في «راسل ستريت»، ورأيت أن «جاك براين» الذي يقف بجانبي مجرد قرد ملون آخر.

وكنت - إذ ذاك - فتاة «بريئة» مثل أختك بالضبط - إذا كنت تملك أختاً بريئة يا حضرة المحقق المضحك - وكنت أحب «جاك براين» وقد تعودت أن أذهب معه للرقص ليلة الأحد، وتعودت أن أتبادل معه بعض القبلات في طريق العودة، ولكن «جاك براين» طلب مني ذات ليلة أن أذهب معه إلى غرفته وجعلني أمزق وجهه بأظافري، وقد مزقت ياقة قميصه أيضاً ولعنته أمام سائق عربة الأجرة، وقلت له إنني فتاة شريفة وإنني لا أذهب مع أحد إلى غرفته.

ثم فقدت «جاك براين» إلى الأبد، ورأيته في الأسبوع التالي بصحبة فتاة أخرى، كانت فتاة من شارعنا، وكانت بريئة أيضاً

Twitter: @alqareah

ولكنها على أي حال كانت تذهب إلى غرفة «جاك براين»، وكانت كل فتاة أخرى في شارعنا تذهب إلى غرفة أحد ما، وكنت وحدي يا حضرة المحقق المضحك، الفتاة الوحيدة في المنطقة بأسرها التي لا تحس بالعار لأنها ما تزال عذراء. ولكني في نهاية المطاف بدأت أحس بالوحدة، إن ذلك يحدث بالذات ليلة الأحد عندما يذهب كل امرئ إلى المرقص ويختار مقعده بجانب الحلقة وينتظر أول مخلوق يمد له يده وينقذه من وحدته.

ولم يكن أحد من شباب المنطقة يمد لي يده. كانوا يعرفون جميعاً أنني لا أذهب إلى أي مكان آخر بعد الحفلة سوى بيتنا المضحك، وكانوا لا يريدون أن يضيعوا وقتهم عبثاً في مطاردة راهبة مزرية في بار مليء بالفتيات الحقيقيات. أنت لا تستطيع أن تلومهم يا حضرة المحقق المضحك.. أليس كذلك؟ إنك لا تستطيع أن تقف فوق مقعدك وتصرخ في البار مطالباً «جاك براين» بأن يدعوك إلى الرقص ويوصلك بعد ذلك إلى البيت دون أن يخطر بباله أن الفتاة «مارجريتا» التي سوف تذهب معه إلى غرفته قد تكون في الواقع أفضل قليلاً. إنك لابد أن تكون عادلاً على الأقل وتعترف لنفسك بأنه ما دام «جاك براين» يحصل على بغيته حقاً فليس ثمة مفر من أن نتركه يحصل عليها. أجل، لقد خطر ذلك ببالي ذات ليلة وخطر لي أيضاً أنني لا أملك فرصة أخرى لكي أتغلب على وحدتي سوى أن أذهب مع أحد إلى غرفته بعد حفلة الرقص، ولكني لم أفعل ذلك، لقد صمدت سنتين كاملتين وأنهيت دراستي ووجدت عملاً في إحدى شركات بيع الأراضي، ثم

Twitter: @alqareah

وجدت شقة مفروشة أيضاً، واكتشفت منذ أول ليلة أن الحياة مملة إلى حد لا يطاق. كنت لا أعرف أحداً في شارعنا، وكنت قد بدأت أنزلق إلى حافة سن الثلاثين دون أن أعثر على فرصة واحدة لاكتساب رجل صديق، وقد ظللت أذهب إلى المرقص كل ليلة أحد، وظللت أتابع الموضة وأزور مصفف الشعر بانتظام وأفعل كل ما تقوله المجلات بخصوص أحمر الشفاه، ولكن أحداً لم يمد لي يده لكي يدعوني إلى الرقص، أجل، كان بعض الرجال يطاردونني بين حين وآخر، وكانوا أيضاً يدعونني للعشاء معهم في أحد مطاعم المدينة، ولكنهم كانوا يختفون جميعاً بمجرد أن يتحقق لديهم أنني فعلاً لا أرغب في الذهاب معهم إلى السرير.

فهل تعرف ماذا حدث ياحضرة المحقق المضحك؟ لقد ذهبت مع واحد منهم إلى السرير، شربت ذات ليلة مثل بغلة مجنونة وتركت «جاك براين» يقرصني في صدري، ثم تركته يدخل يده تحت ثيابى، وعندما سألنى عما إذا كنت أرغب فى الذهاب معه إلى بيته هززت له رأسى وسمعته يقول لأحد أصدقائه إن عليه أن يعتنى بالفتاة «مارجريتا» لأن لديه الليلة صيدًا أكثر أهمية.

ثم خرجت مع «جاك براين» ورأيت نفسي فى المرآة المقامة على مدخل البار ورأيت أننى مجرد قردة زانية ملونة، ولكن ذلك يا حضرة المحقق المضحك لم يكن قد صار يهمنى، فالوحدة الفظيعة التى ظلت تطاردنى ثلاثين عامًا كاملة قتلت فى نفسى أية رغبة فى الكبرياء، لقد كنت قردة زانية ملونة، حسنًا، إن ذلك ليس مخجلاً حقًا، فكل فتاة فى شارعنا قردة

Twitter: @alqareah

مثلى، ذلك بالضبط ما ينقذنى من وحدتى، أما الجلوس فى ثياب راهبة فلم يكن مناسبًا قط.

وذهبت مع «جاك براين» إلى غرفته وسمعته يقول لى بعض النكات المثيرة، ثم رقصنا قليلاً وثرثرنا وسكرنا مثل أي قردين زانيين وذهبنا بعد ذلك إلى السرير، ولكن أسوأ ما في الأمر يا حضرة المحقق المضحك أنني اكتشفت في تلك اللحظة بالضبط أن «جاك براين» يقبض مني الثمن مقدمًا من أجل لا شيء، فأنا لم أرغب قط في الذهاب مع أي رجل إلى سريره، لقد اضطررت إلى ذلك رغم أنفى لمجرد رغبتى في الاحتفاظ بصديق ما، وأنا اضطررت إلى ذلك لأن كل فتاة أخرى تدفع هذا الثمن، وليس ثمة فرصة أمام أية فتاة مثلى لكى تنال نصيبها من الأصدقاء إلاّ بأن تقدم بضاعة أفضل بثمن أقل.

هل فهمت ما أعنيه ياحضرة المحقق المضحك؟ إن كل امرأة فى العالم تحتاج إلى رجل، وإذا كان ثمة ما تستطيع أن تفعله لكي تحصل عليه، فإنها بالتأكيد مستعدة لفعله، وذلك يعني تقريبًا أنها لابد أن تذهب معه إلى غرفته، أو يتركها جالسة في البار ويبحث لنفسه عن فتاة أخرى، وقد خطر لي ذلك بالضبط عندما أخذني «جاك براين» بين ذراعيه، وخطر لي أيضًا أن أجعله يدفع لي عشرة دولارات مقابل أتعابي، أجل، لا تنظر إليَّ هكذا يا حضرة المحقق المضحك. إن المرء لابد أن يطالب بأتعابه مقابل أية خدمة يؤديها لأحد ما، وأنا أعرف أنني كنت أؤدّي خدمة ما في ذلك السرير، لأنني لم أحضر إليه بإرادتي، لقد جئت مع «جاك براين» لكي أرضي رغبته الخاصة، هذا كل ما في الأمر، إنني لا أحبه، وليس ثمة شيء اسمه الحب في

Twitter: @alqareah

بار ليلة الأحد.. ليس ثمة سوى عملية ابتزاز مخجلة يقوم بها الرجال ضدنا جميعًا، وأنا أريد أن أنال أجري على الأقل، الا يبدو ذلك مقززًا ياحضرة المحقق المضحك؟ أعني أن يبتزنا الرجال إلى هذا الحد دون أن يخسروا دولارًا واحدًا؟). ثم قالت (سيلفا) وهى تدق المكتب بقبضتها: (لقد دفع «جاك براين» أتعابي في تلك الليلة رغم أنفه، أنا أرغمته على الدفع إلى آخر فلس، وقلت له إنني لا أحبه، ولا أستطيع أن أحبه أيضًا، ولكني سأذهب معه إلى السرير ما دام يدفع لي عشرة دولارات. وقد شربنا بعد ذلك زجاجة الويسكي الباقية وتحدثنا باتزان أكثر. وأصبح «جاك براين» زبونًا لديّ بعد أن كان مجرد قرد ملون في البار. ثم أصبح بقية الرجال هناك زبائني أيضًا، واضطررت إلى أن أستعين ببعض الفتيات. إن ذلك يا حضرة المحقق المضحك لم يكن تشجيعًا على الدعارة كما قلتم أنتم لي، لقد كان مجرد إجراء مقصود به النظام، فالفتيات يذهبن مع أولئك الخنازير كل ليلة أحد إلى غرفهم على أي حال، إنهن يفعلن ذلك تحت عملية ابتزاز مزرية، وأنا أردت أن يقبضن أجرهن على الأقل، هل تعتقد أن ذلك عمل يدعو إلى حبسى؟).

هذه هي القصة التى روتها (سيلفا)، أما التهمة كما تبدو في سجل الشرطة فلديها وجه آخر ولهجة أخرى أيضًا، فالسيدة (سيلفاج بروكين) متهمة بإدارة تسعة محلات للدعارة السرية تتعاون بطرق غير مشروعة مع معظم البارات المعروفة فى المدينة، وتعمل في (بيع) الفتيات لبعض رجال المال لمدة تتراوح بين شهر واحد وثلاثة أسابيع.

وقد قيل في دفتر الشرطة إن السيدة (بروكلين) كانت تنظم

Twitter: @alqareah

هذه التجارة عن طريق الاتصال بالفتيات اللاتى يرغبن في تغطية نفقات إجازاتهن. وكانت تعرضهن للبيع على عملائها مقابل ألف دولار أحيانًا للشهر الواحد.

وقيل فى دفتر الشرطة أيضًا إن السيدة المذكورة قامت خلال العام الماضي(*) وحده بعقد أكثر من ثمانين صفقة، وإنها باعت مجموعة من الفتيات لبعض الزوار الأجانب، وامتدت تجارتها إلى منطقة الشرق الأوسط، وأن مجموع التهم الموجهة إليها قد تدعو إلى حبسها أكثر من خمس سنوات.

شيء واحد لم يذكر بدقة في دفتر الشرطة، وهو بالذات القصة المفجعة التي روتها (سيلفا) من جانبها الحقيقي، فالقانون في الولايات المتحدة ـ مثل أي قانون حضاري آخر ـ لا يفهم سوى النتائج النهائية، ونتيجة التحقيق أن (سيلفا) معروضة للبيع.

(*) 1968.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة السابعة 7

تعقيب

النماذج التى تم عرضها هنا طوال الأسابيع الماضية[*] لم تكن . في الواقع . مجرد حوادث عشوائية تقع صدفة مثل حوادث المرور، بل كانت أمثلة محددة تملأ شوارع المدن الأمريكية بانتظام يضاهى طلوع الشمس كل يوم من جهة الشرق، والمرء يستطيع أن يفترض أنه سيفتح عينيه غدًا ويكتشف أن الشمس قد طلعت من مكان آخر، ولكنه بالتأكيد سيجد الولايات المتحدة ما تزال تجلس فى فخها الأسود المليء بالنماذج المحزنة.

فالشمس تملك فرصة الاختيار نظريًا على الأقل، أما الولايات المتحدة فإنها لا تملك أية فرصة، وليس بوسع أحد

(*) زمن نشرها فى صحيفة الحقيقة اعتبارًا من 1969/6/21.

Twitter: @alqareah

هناك أن يفعل شيئًا تجاه هذه الكارثة سوى أن يشرب مزيدًا من الويسكى ويبحث عن مزيد من النقود.

إن حبل المشنقة نفسه ليس أكثر إحكامًا من ذلك القانون الشامل، والمرء لا يجوز أن يتورط بأى حال في اعتبار الصدفة البحتة مخزنًا لنتائج الحضارة لأن ذلك في الواقع لا يمكن تفسيره قط إلاّ إذا كانت الحياة نفسها قد بدأت بالصدفة، وهو احتمال أعمى لم يعد يحتاج لمجرد النقاش، إن الشعب الأمريكى بالذات قد قام على أنقاض شعب آخر أقل كفاءة وأقل قدرة على مواصلة الصراع المادي، وعمليات إبادة الهنود الحمر تمت بانتظام طبقًا لنظرية مؤداها: (أن الكفاءة المادية وحدها هي التي تملك الحق في إصدار الحكم النهائي)، وقد تم ذلك بالضبط في نهاية المطاف، وأصدرت البنادق الأتوماتيكية ذات الكفاءة العالية حكمًا بالموت على الهنود الحمر الذين فشلوا في تطوير سهامهم إلى الحد المطلوب، ونبت الشعب الأمريكي في الأرض التي حصل عليها بكفاءته المادية وحدها، ولم يكن ثمة مفر من أن يمد النبات الجديد جذوره في تلك التربة ويمتص منها غذاءه الذي يدعوه الآن (بالكفاءة الآلية).

هكذا شهد العالم مولد أول شعب في التاريخ يعتمد على (الآلة) وحدها لتأمين بقائه، وانطلق الأمريكيون الأوائل ينشئون المزارع ويذرعون مراعى القارة العذراء معتمدين في الدرجة الأولى على كفاءة البندقية الأتوماتيكية في مواجهة سهام الهنود الحمر. وكان ذلك بالضبط هو الخطأ المميت

Twitter: @alqareah

الذي يدفع الشعب الأمريكي ثمنه الآن في حبل المشنقة، فالكفاءة الآلية لا تستطيع بأي حال أن تعمل بمثابة تربة صالحة لنشوء الحياة دون أن تنفث فيها السم الحقيقي الذي ندعوه الآن (بالمادية الأمريكية)، أو بكلمة أخرى حضارة القرن الواحد والعشرين، وذلك السم يقف مسؤولاً بثبات عن التطور الميكانيكى فى الولايات المتحدة والتطور الاقتصادي أيضًا وخروج العملاق الأمريكي محملاً بالقنابل الذرية والشركات الفاحشة الثراء.

إن اللعبة تشبه بالضبط خروج الغراب من الغراب، فالشعب الذى يفرض بقاءه بالبنادق الأتوماتيكية وحدها لابد أن يواصل الجري في هذا الاتجاه إلى آخر مدى ويعيش سنواته الهمجية في قبضة أمهر الرماة وقطاع الطرق ومبارزات رعاة البقر ويدفع ثمنًا سيئًا للغاية مقابل كل لحظة يعيشها هنا، فإذا استطاع أن يحل مشكلة الفوضى العامة بقوة القانون، فإن ذلك لا يعني أنه سيظفر بالسلام، بل يعني بكلمة قبيحة واحدة أنه سيواجه شيئًا آخر أكثر همجية وإمعانًا في التدمير من كل قطاع الطرق والهنود الحمر على حد سواء، وأنه - في هذه المرة - لا يستطيع أن يحتمى بلعبة القانون.

فانظروا ماذا حدث: لقد واجه الشعب الأمريكي ذلك الوحش، وأطلق عليه اسم (الكفاءة الآلية)، وطفق يطعمه كل ما لديه بما فى ذلك أطفاله غير الشرعيين وزوجته التى تلهث عارية في سرير جاره وأولاده المسعورين على امتداد جبهات

Twitter: @alqareah

القتل من أمريكا اللاتينية إلى فيتنام، وابنته التى ضاعت هدرًا في سحب الحشيش وعمليات الإجهاض ومجلاته الجنسية وتبغه وكحوله وأعصابه المشدودة طوال النهار خوفًا من هبوط الأسهم فى البورصة، إلى جانب ذلك الإحساس المتناهي الفظاعة الذي ينتاب المرء عندما يدرك فجأة أن مطارده القاتل لا ينوى أن يتوقف أبدا.

فى مقابل هذا الجحيم يملك المواطن الأمريكى قاربًا بخاريًا وسيارة طويلة بشكل ملحوظ وبوليصة التأمين على الحياة والخدمة الطبية وجهاز التليفزيون الملون ورغوة الحلاقة المعطرة وبعض الدمى الأخرى.

فمن خسر الصفقة فى نهاية المطاف؟ الهنود الحمر أم الشعب الأمريكى؟

الإجابة بإيجاز متعمد أن الهنود الحمر لم يكسبوا شيئًا بالتأكيد لأنهم - منذ البداية - لم يكن لديهم ثمة ما يستحق المساومة، وقد انقرضوا كلية تقريبًا قبل أن يعرف أحد منهم طبيعة الوفاء الذى أدى إلى انقراضهم، أما الشعب الأمريكى فقد خسر صفقته على خط مستقيم رغم كل ما لديه من الكنوز، وفشل أيضًا - مثل الهنود الحمر - فى تحديد طبيعة الوباء الذى يعمل على إبادته.

الهنود الحمر انقرضوا بفعل البنادق الأتوماتيكية، والشعب الأمريكى ينقرض الآن بفعل إيمانه بالبنادق الأتوماتيكية، إن ذلك يشبه بالضبط خروج الغراب من الغراب، فالرجل الذى يخترع بندقية لكى يؤمن بقاءه دون أدنى محاولة للبحث عن

Twitter: @alqareah

وسيلة أخرى لابد أن يضع إيمانه كله فى تلك الآلة الفظيعة وحدها، ولابد أن ينطلق لاهثًا وراء المزيد من الآلات ذات الكفاءة العالية في مسيرة مرهقة لا تستطيع أن تتوقف أبدا.

وهذا بالضبط ما حدث فى حضارة الولايات المتحدة، فكل شىء هنا - وأنا أعنى كل شىء حقًا من موس الحلاقة إلى طائرات الفانتوم - يعمل بكفاءة عالية، ويبذل الخبراء فى المعامل مجهودات جديدة لزيادة كفاءته، وسوف يفعلون ذلك فى العام التالى وينطلقون فى نفس الاتجاه لزيادة الكفاءة الجديدة فى العام الذي يليه داخل حلقة مفرغة لا تعرف كيف تتوقف بأي حال دون أن يتسبب ذلك في انهيار الولايات المتحدة مثل جدار من الرمل الجاف.

وأنا أريد أن أشير هنا إلى صناعة الأسلحة بالذات باعتبارها مجرد مثال للعبة الكفاءة المريعة، فالشعب الأمريكي الذي بدأ يواجه أعداءه من الهنود الحمر ببندقية أتوماتيكية يواجه أعداءه من الروس بقنبلة ذرية فى الوقت الحاضر،(*) والفرق بين هذين السلاحين القاتلين لايزيد بأي حال عن فترة زمنية طولها نصف قرن تقريبًا، ولكن كفاءة القنبلة الذرية تزيد فى الواقع عن كفاءة أية بندقية في العالم بمقدار لا يمكن تصوره.

وهذه اللعبة تتم بالنسبة لكل (آلة) أخرى في العالم بأسره، فنحن ندعو القرن(**) نفسه ثورة التكنولوجيا، وهو اسم جاء أيضًا من الولايات المتحدة التي انطلقت في هذا الاتجاه منذ

(*) أيام صراع الحرب الباردة بين القطبين (أمريكا - الاتحاد السوفيتى).

(**) القرن العشرون.

Twitter: @alqareah

البداية حتى وضعت قدميها فوق سطح القمر دون أن تتوقف قط ودون أن تستطيع التوقف أيضًا.

فهل يستطيع (الإنسان) أن يتنفس في هذا الجو الشاذ؟

الإجابة بإيجاز أن الإنسان يستطيع دائمًا أن يتنفس بيسر ما دام يحس بالرضاء النفسي، وكلمة الرضا النفسي تعني بالضبط ما تعنيه كلمة (السعادة)، ولكنها أكثر تحديدًا وأكثر قدرة على إيضاح نقطة النقاش، فالمرء يستطيع أن يفترض أن الإنسان الأمريكي الحديث سعيد للغاية، وأنه يكاد أن يموت من السعادة، ولكن أحدًا لا يجرؤ على القول بأن ذلك الإنسان يعيش في سلام مع نفسه، فالذي يحقق هذه المعجزة لا يحتاج إلى أن يعيش مشدود الأعصاب إلى أسهم البورصة ولا يحتاج إلى القتال على كل جبهة في العالم ولا يحتاج أيضًا إلى أن تصل نسب تعاطى المخدرات والدعارة والجريمة بداخله إلى أعلى مستوى في التاريخ.

إن ذلك يحدث في الولايات المتحدة، ولابد أنه يدل على أن الشعب الذي مشى فوق القمر لا يضم في داخله سوى طابور واحد من الشحاذين التعساء، والنماذج التي عرضتها هنا خلال (الأسابيع الماضية) كانت تهدف إلى تركيز هذه الحقيقة داخل أضيق دائرة ممكنة، فالحديث العام يجعل الأشياء تبدو دائمًا باهتة بطريقة لا تغتفر، وقد عرضت هنا قصة مهندس في سفن الفضاء، وقصة فتاة تعمل في صناعة الموديلات العارية، وقصة رجل أعمال من وول ستريت، وقصة السيدة (سيلفا ج. بروكين) التي تعمل أيضًا في تجارة الرقيق. وتم اختيار هذه النماذج لكي تمثل أكبر قطاعات المجتمع الأمريكي المعاصر في

Twitter: @alqareah

محاولة أمينة لتسليط الضوء المركز على الدائرة الصغيرة التي تمثل بوضوح ما يحدث في القطاع بأسره.

والدائرة الصغيرة تبدو تعسة إلى حد لا يطاق، فالمهندس الوقور ينهار خلال الأسبوع الأول من فقده لعمله ويكتشف أنه لا يملك صديقًا واحدًا في العالم بما في ذلك زوجته وأولاده، وأن كل شيء في حياته مجرد طلاء من الخارج مثل صبغة شعره بالضبط.

والفتاة الموديل تصل إلى نيويورك لكي تبحث عن عمل، ثم تكتشف منذ أول يوم أن العثور على عمل ليس في الواقع مشكلة بأي حال داخل مجتمع نشط مثل مجتمع نيويورك ولكن المشكلة حقًا أن يحتفظ الإنسان بعمله ورأسه معًا في وقت واحد دون أن يصاب بالدوار في أضواء نيويورك. وقد فقدت الفتاة الموديل رأسها على قضبان السكة الحديد في نهاية المطاف.

ورجل الأعمال من وول ستريت فقد زوجته في شقة جاره المهذب وتورط في ارتكاب جريمتى قتل مرة واحدة لمجرد عجزه عن تحقيق أمنية بسيطة تتمثل في الاحتفاظ بزوجته لنفسه دون أن يضطر إلى تركها وحيدة طوال أيام الأسبوع لمواجهة منافسيه في وول ستريت، والسيدة (سيلفا . ج . بروكين) كانت تبيع الفتيات لكل من يرغب في الشراء عبر محاولة يائسة للبحث عن قليل من المنطق في شيوعية الجنس التي تجتاح المدن الأمريكية.

وهذه النماذج المريعة تمثل حقًا قطاعات واسعة من شعب

Twitter: @alqareah

الولايات المتحدة. إنها ليست مجرد حوادث عابرة تقع بالصدفة، وليست أيضًا نماذج شاذة تحدث بين حين وآخر نتيجة ظروف طارئة. إنها قصص يومية متكررة تشبه بالضبط أي حادث يومي عادي، وإذا كان طلوع الشمس غدًا من جهة الشرق أمرًا مؤكدًا فإن حدوث المآسي في الولايات المتحدة أمر مؤكد بصورة أكثر، إنها وجه الرخاء الآخر الذي أحضرته الآلة معها.

Twitter: @alqareah

الحلقة الثامنة 8

وجه الرخاء الآخر

الرسالة التالية وصلت إلى قاضى الطلاق فى مدينة لاس فيجاس بشأن قضية معروضة للنظر بين مواطن أمريكي يدعى (جون والس) وبين زوجته السويدية الأصل، وقد اعتمدها القاضى بمثابة وثيقة قانونية في دعوى الطلاق رغم أن أسلوبها يشير بوضوح إلى أن الزوج ـ الذي كتب الرسالة ـ كان واقعًا تحت تأثير مخدر ما إلى حد أنه أحيانًا كان يخطئ في تهجي الكلمات.

والرسالة تقول: (.. أنت تريد أن تعرف لماذا أتخلى عن زوجتي، حسنا يا فضيلة القاضي، أنا أيضًا أريد أن أعرف ذلك، فالواقع أنني بدوري لا أجد مبررًا واحدًا للتخلص من تلك السيدة السماوية ذات اللكنة الفاتنة التي تجعلك تحس

Twitter: @alqareah

بأنك لا تريد شيئًا من العالم سوى أن يتركك تحملها فوق كتفك وتتسكع بها في مطاعم لوس أنجيلوس لكي تقتل بعض المواطنين بالحسد. أجل. إنها سيدة عظيمة وكل شيء، وأنا لا أعرف لماذا أريد أن أتخلى عنها. ولكن، يا فضيلة القاضي اسمع، إنني أيضًا لا أعرف ماذا أفعل بها في بيتي.

هل تصدقني؟ حسنًا.. أنا أقسم لك أنني لا أعرف ماذا أفعل بالسيدة (انجريد د. والس) في أي مكان، إنها مجرد امرأة فاتنة تمشى إلى جانبي على الدوام لأنها زوجتي. هذا كل ما في الأمر. أما لماذا تصير السيدة المذكورة زوجتي ولماذا لا تذهب للمشى بجانب خنزير آخر، فأنا - في الواقع - لا أعرف ثمة إجابة معقولة.. هل تصدقني؟ أعني هل ترى معي لماذا أريد أن أتخلى عن تلك السيدة؟ أجل.. لأننى لا أعرف ماذا أفعل بها هنا.. ذلك بالضبط هو المبرر الوحيد ولكنه مبرر كاف. أليس كذلك؟ فأنت لا تستطيع أن تحتفظ بالسيدة (انجريد د. والس) في بيتك لمجرد أنها زوجتك. إنك لا تستطيع أن تفعل ذلك دون أن تبدو سخيفًا إلى حد لايطاق.. هل تصدقني؟. إن المرء لابد أن يجد شيئًا يريد أن يفعله مع زوجته إذا أحضرها معه إلى بيته لا أن يحضرها معه لمجرد أنها زوجته.. اسمع، هل نفذ ذلك إلى دماغك؟.. حسنًا. أنا أعترف لك بأنني لا أعرف شيئًا واحدًا في العالم أريد أن أفعله مع السيدة (انجريد د. والس)، فنحن في الواقع فعلنا كل شيء.. لقد وقعنا في الحب وتسكعنا متشابكي الأيدي طوال

Twitter: @alqareah

الليل، ورقصنا في الشوارع وتبادلنا القبلات فى المطر ووضعنا خطة للمستقبل، ووضعنا قائمة بأسماء أطفالنا أيضًا وتعاهدنا على الوفاء بقية حياتنا.. وتشاجرنا أحيانًا بدافع الغيرة وسكرنا في معظم حانات (بيل استريت)، ثم حملنا حقائبنا ذات يوم وذهبنا إلى السرير لكي نعقد زواجنا طبقًا لتعليمات العائلة.. أجل. أنت لا تستطيع أن تتصور ماذا حدث هناك. يا إلهي، لقد كان عرسًا عظيمًا مليئًا بالسعادة وكل شيء، وكانت حماتي تقرصنى في مؤخرتى من فرط الإعجاب، والأقارب المهذبون يشربون نخبنا طوال الليل، والقسيس الطيب القلب يصلى من أجلنا صلاة إضافية بعد مراسم الخدمة، وكنت بالطبع أتظاهر بالعجلة في حمل «انجريد» إلى غرفتنا، وكانت حماتي تتابعني بنظرة ماكرة مؤداها أنها تستطيع أن تحدس مقدمًا كل ما أزمع أن أفعله مع «انجريد» في غرفتنا.. ولكنها كانت مخطئة بطريقة مزرية، وكانت «انجريد» - في الواقع - حاملاً منذ أربعة أشهر، وكنا قد فعلنا في لاس فيجاس كل ما أردنا أن نفعله.

أجل.. يا إلهي، لقد كانت حماتي مخطئة بطريقة مزرية، وكنا متعبين من التمثيلية الصغيرة، وقد هربنا في نهاية المطاف إلى إحدى الغرف، ونمنا مثل صخرتين سعيدتين، وعندما عدنا بعد ذلك إلى لاس فيجاس كنا ما نزال نحس بالتعب. وقد اشترينا بيتًا من ثلاثة طوابق. أجل، أنا لم أقل لك إنني أحب البيوت الكبيرة التي تجعلك تحس كأنك أمير

Twitter: @alqareah

فرعوني داخل هرمك، واشترينا أيضًا قطعة الأرض المجاورة لكي نقيم فيها حوض السباحة وملعب التنس. وعندما أبدت «انجريد» رغبتها في تعلم ركوب الخيل اشترينا أيضًا البحيرة المجاورة وقمنا بردمها ووضعنا فيها خمس خيول عربية وبغلين من بولندا وفيلاً واحدًا. حسنًا.. ماذا نفعل بالليل؟ أنا في الواقع لا أدري ولكن «انجريد» أبدت رغبتها في الحصول على فيل صغير يصلح للعب مع الأطفال. وقد أحضرت لها ذلك الحيوان الأخرق من بلد يدعى الهند، وقضينا بضعة أيام مليئة بالإثارة في معاكسته، ثم اعترانا الملل وقررنا أن نتركه وشأنه.

أف.. الملل، هل سمعت قط بذلك المرض المزرى يا فضيلة القاضي؟.. معذرة، لقد كنت أشعر بالملل، وكنت مستعدًا لأن أفعل أي شيء في العالم مقابل الخلاص من ذلك المرض المزرى الذي يدب في صدرك مثل عقرب ملوثة بالعسل، وقد فعلت أشياء كثيرة حقًا وانطلقت مع السيدة (انجريد د. والس) لكي نجوب العالم في طائرة خاصة.. أف.. هل جربت مرة أن تمارس الحب مع السيدة (أنجريد د. والس) في طائزة خاصة؟ حسنًا، أنا فعلت ذلك أكثر من مائة مرة، ولكن ذلك أيضا لم ينقذنا من الملل، وقد مارسنا الحب في هونج كونج وفي مدينة إسطنبول وفي هونولولو أيضًا، ونمنا فوق الرمال الساخنة واستمتعنا بالشمس وزجاجات الكوكاكولا والقبلات المفاجئة. ثم عدنا إلى لاس فيجاس واكتشفنا مرة أخرى أننا ما نزال نحس بالملل.

Twitter: @alqareah

كنا مجرد خنزيرين ميتين من الداخل ومحشوين بالقطن، وكنا نملك كل شيء في العالم، ونستطيع أن نغادر لاس فيجاس في أي وقت ونذهب إلى أي مكان، وقد فعلنا ذلك مائة مرة وطفنا ـ متشابكى الأيدي ـ معظم المدن المثيرة التى يتحدثون عنها في النشرات السياحية، وفعلنا كل ما تستطيع تسعون مليون دولار أن تفعله.. هل تصدقني؟ أجل، ولكن الملل ابن العاهرة بدأ يجوب العالم أيضًا على حسابنا. لقد كان يرافقنا مثل حقائبنا بالضبط، وكنا نجلس معًا طوال ساعات النهار دون أن نتبادل كلمة واحدة، وكانت «انجريد» تقرض أظافرها وتتبادل النظرات مع أي رجل يجلس بالقرب من مائدتنا، وكنت بدوري أفعل ذلك مع المرأة التي تجلس بجانبه، وعندما تجمعنا حفلة ما نتفرق على الفور لكى يبحث كل منا على حدة عن شيء يقوله أو يسمعه لأول مرة.

أجل.. يا فضيلة القاضى. هل فهمت ما أقصده؟ لقد كنا معًا، السيدة (انجريد د. والس) وأنا.. مجرد نسختين من قصة واحدة، وكنا نملك كل شيء في العالم، بما في ذلك الفيل الأخرق الذى يذرع الساحة أمام بيتنا في لاس فيجاس، وكنا أيضًا خنزيرين مخادعين. انتظر، أنا أزمع أن أقول لك أين كنا نخدع أنفسنا، أنا أعرف ذلك الآن، لقد سكرت ذات ليلة وقررت أن أواصل السكر حتى أعرف لماذا كنا نشعر بالملل، وأنا أعرف أننى اكتشفت السبب.. فاسمع الآن. لقد كذبت عليك، نحن لم نكن نملك كل شيء في العالم. لقد كان ثمة شيء واحد

Twitter: @alqareah

لم يكن بوسعنا أن نملكه، وكان ذلك الشيء ـ يا فضيلة القاضى ـ أن أحدًا منا لم يكن لديه ثمة ما يفعله.

أجل، أنت لا تستطيع أن تجد شيئًا تفعله عندما تصل ثروتك إلى تسعين مليون دولار. هل تعرف ذلك من قبل يا فضيلة القاضى؟، إن تسعين مليون دولار تشبه بالضبط مصباح علاء الدين، وعندما يضع الشيطان ذلك المصباح فى عنقك ويعلق فيه السيدة (انجريد د. والس) ويتركك تذرع العالم في طائرة خاصة، فأنت فى الواقع لابد أن تطير متطوعًا إلى الجحيم. إنك لن تجد طريقًا آخر يحملك إلى أى مكان، هل تصدقني؟ حسنًا، أنا أعرف أن المرء لابد أن يمتلك أولاً تسعين مليون دولار لكي يفهم لعبة الشيطان السخيفة.

فأنت ـ إذ ذاك ـ خنزير ميت محشو بالقطن، هذا كل ما في الأمر، إنك لا تستطيع أن تجد ثمة ما تفعله سوى أن تواصل خداع نفسك وتذهب لركوب الفيل مرة وللعب الجولف ومطاردة البط البري الجائع في المستنقعات المجاورة والعمل قليلاً في حديقة البيت على عادة الرجال العاقلين وتبادل النكات القديمة مع أصدقائك وإظهار كل ما لديك من النفاق في الحفلات العامة ودلق الأنخاب في جوفك والترنح بنزق على أرضية الرقص وبقية الخدع الاجتماعية الأخرى. هذا كل ما في الأمر. إنك مجرد خنزير فظيع مغلق عليه داخل جلده النتن، يا إلهي.. هل تستطيع أن تتصور ذلك يا فضيلة القاضي؟ أعني أن يكتشف المرء ذات يوم أنه مجرد خنزير مسجون داخل جلده؟

Twitter: @alqareah

حسنًا، لقد كنت مخمورًا تلك الليلة، ولكننى نظرت صدفة فى المرآة ورأيت بوهن أنني على وشك أن أتقيأ من الغضب، لقد كان المخلوق الذي ظهر أمامي في المرآة مجرد كتلة صلدة من الشحم والجلد والعظام. هذا كل ما في الأمر. أعني هذا كل ما أعرفه عن نفسي، مجرد خنزير سمين يلبس قميصًا أبيض. لا تدع الضحك يغلبك. أنا لا أريدك أن تضحك من رجل بائس مثلي. يا إلهي، هل يستطيع أحد القضاة أن يضحك حقًا إذا قلت له إنني لا أعرف شيئًا عن نفسى سوى إننى كتلة من الشحم والجلد والعظام الملفوفة في قميص أبيض.

يا فضيلة القاضي، معذرة، إن المرء لا يستطيع أن يواصل الحياة شبرًا واحدًا في قبضة ذلك المرض المزري، إنه يفقد الرغبة في كل شيء، ويشرع في تذوق العرق الحافل بالمرارة الذي ينفجر عادة من حلقه ويجعله يتجمد فجأة مثل عجوز مختنق برائحة كلب متعفن، فنحن نموت من الملل عندما نملك كل شيء في قبضتنا، هذا كل ما في الأمر، إننا نموت حقًا وندفن أنفسنا بجانب المدفأة ونشرع في خداع الشيطان نفسه خلال حفلاتنا الصاخبة ورحلاتنا البعيدة المدى حول العالم الممل وملابسنا وعرباتنا الفظيعة ونسائنا وأفيالنا أيضا، إننا لا نجد ثمة ما نفعله، أجل، هذا ما يحدث في الداخل، ولا نجد ثمة ما نقوله أو نسمعه. انتظر، لا تدعني أهذى هكذا بدون هدف، أنا.. أريد أن أقول لك إن المرء لا يستطيع أن يجلس في بيته العصري بجانب زوجته العصرية ويطير أيضًا بطريقة

Twitter: @alqareah

عصرية ويتشقلب على رأسه في مدن العالم دون أن يتعرض للمتاعب، إنه لابد أن يفقد نفسه في وسط الطريق، ولابد أن (يتحلل) مثل مومياء في المطر ويتساقط بالتدريج ورقة بعد ورقة حتى يصبح في نهاية المطاف مجرد عود من الحطب.
هل تعتقد أن هذا نوع من الشعر؟ حسنًا، ماذا تريدني أن أقول؟ إن المرء يفقد رأسه حقًا إذا كان كل مالديه تسعون مليون دولار فقط.

انتظر، لا تدعني أنسى السيدة (انجريد د. والس). أجل، ماذا أريد أن أقول بشأنها؟ يا إلهى، ساعدنى لكى أتذكر. إنها امرأة عظيمة وكل شيء، ولكنها - مثل التسعين مليون دولار - لا أعرف ماذا أفعل بها، هل نفذ ذلك إلى دماغك يا فضيلة القاضي؟ إنني لا أعرف شيئًا واحدًا أريد أن أفعله مع تلك السيدة أو مع أي خنزير آخر في العالم، فأنا فعلت كل شيء، هذا كل ما في الأمر، ولم يعد ثمة ما يغريني في العالم بأسره. هذا ليس كذبًا أو شعرًا يا فضيلة القاضي. إن المرء لا يشرب زجاجتين من الويسكي لكي يكذب، إنني أنقل لك جحيمي الحقيقي، أعني أنقل لك ما يحدث في البيت المكون من ثلاثة طوابق، والجحيم - بكلمة واحدة - أن تكتشف ذات يوم أنك مجرد خنزير متحضر يلبس قميصًا أبيض ويمارس الحب مع السيدة (انجريد د. والس) في السماء.

أنا لا شيء آخر.. لا شيء).



Twitter: @alqareah

هذا نص الرسالة التي قبلها القاضي فى لاس فيجاس بمثابة وثيقة قانونية في دعوى الطلاق، والمرء يستطيع أن يقرأها أكثر من مرة دون أن يجد بداخلها ثمة ما يعني أن المواطن (جون والس) يملك أية أسباب لطلب الطلاق من زوجته. إنه يشعر بالملل، هذا كل ما في الأمر، والسؤال المشوق بعد ذلك: هل يكفي الملل لتهديم بيت من ثلاثة طوابق..؟

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة التاسعة 9

أقوى من الطوفان

منذ (بضعة أيام)(*) كنت أعرض هنا قصة المواطن الأمريكي (جون والس) الذي يملك خمسة وتسعين مليون دولار في أحد جيوب سترته، ويملك طائرة خاصة يذرع بها سماوات العالم في صحبة زوجته السويدية الأصل. وقد دعاني إلى عرض قصة المواطن السعيد أنه سكر ذات مرة وكتب رسالة مريعة إلى قاضي الطلاق في مدينة لاس فيجاس أعلن فيها عن رغبته المفاجئة في التخلي عن السيدة زوجته بدافع الشعور بالملل. وقد قبل القاضي دعوى الطلاق بيسر ملفت للنظر كأن المرء لا يحتاج إلى شيء آخر لكي يهدم بيته فوق رأس زوجته سوى أن يعلن للقاضي أنه بات يشعر بالملل. فهل يكفي ذلك العذر الواهي لهدم بيت من ثلاثة طوابق؟.

(*) إشارة إلى نشر الحلقات متتابعة، كما مرّ، بصحيفة الحقيقة

Twitter: @alqareah

أنا أعرف أن الإجابة تستطيع أن تبدو معقدة إلى حد يثير الريبة، وأعرف أن ذلك قد يضم بداخله كثيرًا من المبالغة في إظهار مدى سوء النتائج المتوقعة، فالمرء يدهشه حقًا أن يقال له إن المواطن (جون والس) الذي يملك خمسة وتسعين مليون دولار وطائرة خاصة يجوب بها العالم بلا توقف يمكن أن يصاب بالملل.

ولكن السؤال المشوق يبدأ في الواقع على هذا النحو: ما هو (الملل)؟، وأنا أعتقد أن هذه الكلمة المقززة لا تملك مرادفًا آخر في أية لغة في العالم سوى كلمة (العبث). فالشيء الذي ينمو في صدور مخلوق ما ويجعله يحس كأنه يعيش داخل سحابة ملوثة برائحة الشيطان ليس مجرد حالة نفسية طارئة، إنه تصور أصيل لوجهة الحياة نفسها. فالفراغ موجود في الخارج على الدوام، ونحن نستطيع أن ننشغل عنه معظم ساعات النهار بقتل الوقت في لعب الورق أو قراءة رحلات السندباد، أو العمل بانهماك في أداء شيء ما، ولكننا أيضًا نستطيع أن نلمسه بأصابعنا بمجرد أن نكتشف أننا لا نملك ثمة ما نريد أن نفعله.

عندئذ يصبح الفراغ حقيقة واقعة، وتنطلق الحياة في نزق عبر سحابة معتمة من الساعات والأيام والسنين المجوفة التي تبدو دائمًا خالية من الطعم، والمرء - عندما يقع في هذا الفخ - يسارع إلى الشكوى من عدوه الغامض المدعو (بالملل)، ولكنه غالبًا ما ينسى أن يلقي نظرة أخرى على عدوه الحقيقي الذي يجلس داخل صدره، فالملل - مثل وجع الأسنان بالضبط - مجرد إشارة مباشرة عن وجود مرض مدمر في الداخل. إنه مجرد

Twitter: @alqareah

رد فعل متناهي البساطة لانفجار العدو الحقيقي في منطقة ما من الكائن الحي، والملل يحدث دائمًا لإعطاء الإشارة عن تحقق مهزلة (العبث) داخل الحياة.

فالعبث مرض حقيقي موجود في العالم مثل أي مرض آخر. ولكنه ـ بطبيعة حدوثه ـ لا ينتقل بطريق العدوى، إنه يولد كتلة واحدة، في لحظة واحدة أيضًا، داخل الحياة بأسرها ـ بمجرد أن يرفع المرء رأسه ذات يوم ـ ويكتشف مذعورًا أنه ـ في الواقع ـ لم يعد لديه ثمة ما يريد أن يفعله.

لم يعد يرغب في مواصلة لعب الورق، لم يعد يرغب في الويسكي، أو التسكع بطائرته الخاصة في سماوات بانكوك، لم يعد يرغب في تبادل الحب مع السيدة الشقراء التي تتكور بجانبه، لم يعد يرغب في الرقص أو مداعبة فيله المضحك في حديقة البيت، أو مطاردة جارته، أو لعب البوكر، أو العمل في (وول ستريت)، لم يعد يرغب في شيء، ولم يعد ثمة ما يثير اهتمامه سوى أن يجلس على الأرض ويشرب ما يجده من الويسكي ويبصق على رأس العالم الموحش المليء بالعبث.

عندئذ يحدث المرض، إنه يولد دفعة واحدة كما يولد الانفجار البركاني ويجرف كل شيء في طريقه، ويجعل الحياة نفسها مجرد لعبة جرداء خالية من النتائج إلى حد يدعو إلى اليأس، والمرء يمضغ أيامه باستياء واضح من الشيء الذي يدعوه (بالملل)، ويواصل حياته المريضة حاملاً في صدره ذلك المخلوق الذي دعاه المواطن (جون والس) في ـ رسالته ـ عقربًا ملونًا بالعسل، وهو معرض حقًا لأن يترك ذلك الشيطان يقوده طائعًا إلى الجحيم إذا وقع فريسة الخلط بين ظاهرة الملل وبين

Twitter: @alqareah

المرض الحقيقي الكامن في الداخل، فالملل يمكن التغلب عليه بلعب الورق، ويمكن التغلب عليه بالذهاب في صحبة امرأة شقراء إلى بانكوك، أو شرب زجاجة من الويسكي، أو الخروج في نزهة جماعية، أو إقامة مزيد من الحفلات أو الانهماك في العمل، أو التسكع بطائرات خاصة في مطارات العالم. إن الملل يمكن التغلب عليه بإنفاق مزيد من النقود. ذلك واضح للغاية، ولكنه من الواضح أكثر أن تلك المحاولة المتواضعة مجرد لعبة أخرى لتهدئة الألم وحده. وكلما طال المرض كلما تضاعفت الحاجة إلى مزيد من الأقراص المهدئة. وكلما ازدادت حدة الملل، كلما أحس المرء بأنه في حاجة إلى مزيد من اللعب المثيرة، فالذي يبدأ معركته باللجوء الفوري إلى زجاجة الويسكي، يكتشف بمرور الوقت أن زجاجة وحدها لم تعد تكفي، وأنه يحتاج إلى أن يشرب مرتين في اليوم بدل مرة واحدة لملاحقة ملله من العالم، ثم يكتشف أنه يريد أن يشرب أكثر من ذلك مرتين، ثم تحدث الكارثة عندما يفتح عينيه فجأة ويكتشف مذعورًا أن الملل قد ملأ كل شيء في حياته، وأنه لم يعد لديه ثمة فرصة واحدة سوى أن يشرب طوال حياته أيضًا.

نحن ندعو ذلك في لغتنا المتواضعة باسم (الإدمان)، وهو في الواقع شيء يشبه ذلك أيضًا. ولكن الإدمان مجرد ظاهرة من الخارج مثل الملل نفسه. فالمرض الحقيقي لا يحتاج دائما إلى مخلوق مدمن. إنه يستطيع أن يصيب رجلاً متزنًا مثل المواطن (جون والس) ويجعله يلهث داخل علبته الطائرة من قارة إلى قارة مثل سمكة مختنقة في علبة سردين، دون أن يدفعه إلى إدمان شيء واحد بالذات.

Twitter: @alqareah

إنه يدفعه هذه المرة إلى إدمان كل شيء. ذلك يعني أن المواطن (جون والس) لا يحتاج إلى أن يسكر كل يوم مثل أي مدمن عادي. ولكنه يحتاج أن يفعل شيئًا آخر على أي حال. إنه لابد أن يخرج لصيد البط البري، أو لمطاردة التماسيح في أوغندا، أو التسكع بعربته الطويلة في أوربا، أو المراهنة على خيول السباق، أو الرقص أو القمار، أو أية كارثة في العالم تستطيع أن تنقذه من الجلوس وحده وجها لوجه أمام الشيطان.

فالمواطن (جون والس) لا يملك شيئًا يفعله مع نفسه، إنه ببساطة لا يجد ثمة ما يقوله لها، ولا يستطيع أيضًا أن يجلس في بيته ويثرثر وحده عن صيد البط البري وارتفاع أسهم البورصة ومطاردة التماسيح في أوغندا. إن المرء يفعل ذلك دائما في صحبة الآخرين، ويتحدث عنه في صحبتهم أيضًا، والمواطن (جون والس) لا يستطيع أن يخرج من جلده. إنه لابد أن يخرج إلى الشارع ويبحث عمن يريد أن يتحدث معه عن صيد البط البري أو شراء بعض الأسهم أو زيارة منطقة التماسيح في أوغندا. أما أن يجلس وحده في البيت فإن ذلك يعني ـ بكلمة واحدة ـ أن المواطن (جون والس) سوف يموت من (الملل) نظرًا لعجزه الكلي عن إيجاد شيء واحد مثير في حياته من الداخل. فالمرء لا يستطيع أن يسير في اتجاهين مختلفين في مرة واحدة، إنه لابد أن ينطلق إلى الخارج بحثًا عن الهروب من الملل، أو ينطلق إلى الداخل لمواجهة (العبث) الذي يحس به يملأ صدره. والمرء في الغالب يختار لعبة قتل الملل لأنها في

Twitter: @alqareah

الواقع مجرد لعبة حقيقية، ولأن ذلك ممكن تحقيقه بإنفاق قليل من النقود. أما مواجهة العبث الكلي التعقيد فإنه يحتاج إلى مجموعة هائلة من الأفكار الأصيلة والتواضع والقدرة على رؤية الأخطاء والتناقضات والأمانة الصارمة في تقييم الوجود نفسه.

والمرء لا يتوقع من مخلوق متواضع الإمكانيات مثل المواطن (جون والس) أن يضع خمسة وتسعين مليونا من الدولارات جانبًا ويجلس وحده لمواجهة أسئلة الحياة المتناهية التجريد. إنه في الواقع لابد أن يختار طريقه إلى الخارج، ولابد أن يدفن كل شيء في مزيد من اللعب المثيرة، ويختار بالطبع الطريق الأقصر الذي يتمثل في تهدئة حدة الألم بدل الدخول في مشكلة العلاج المعقدة.

ولكن الفخ الحقيقي يكمن هنا بالضبط، فالأمراض تكتسب صفة الحصانة ضد الأقراص المهدئة بمرور الوقت، والملل أيضًا يكتسب تلك الصفة، فأنت تستطيع أن تتغلب على عطلتك المملة بالذهاب إلى أثينا أو بالجلوس في ناصية الشارع ومراقبة المارة أو بأي شيء تجده أمامك، ولكنك لا تستطيع أن تفعل ذلك مرتين، أعني أنت لا تستطيع أن تبقى في أثينا إلى الأبد دون أن يعتريك الملل، ولا تستطيع أيضًا أن تقضي حياتك في لعب الورق أو مراقبة المارة عند ناصية الزقاق. إنك لابد أن تواجه في إحدى اللحظات الحرجة مشكلة الملل من جديد، ولابد أن تبادر إلى البحث عن شيء آخر تفعله موقنًا بوضوح أن الملل المريع قد اكتسب حصانة حقيقية ضد أول حيلة لقتله، وأنك تحتاج إلى البحث عن حيلة أخرى على الفور.

Twitter: @alqareah

وأنت تستطيع أن تقضي حياتك في البحث عن الحيل الجديدة، ولكنك بالتأكيد ـ وبطريقة لا تقبل الشك ـ لا تستطيع قط أن تقتل الملل. فالأقراص المهدئة لا تقتل الآلام أيضًا. إن ذلك يحتاج إلى استئصال المرض نفسه، وأنت لابد أن تستأصل إحساسك بالعبث قبل أن تتاح لك فرصة النجاة من قبضة مللك.

فكيف يحقق المرء هذه المعجزة؟

كيف يقنع المرء نفسه بأن مطاردة التماسيح البائسة في أوغندا ليس مجرد عبث لا طائل تحته؟ وأن التسكع في سماوات العالم من مدينة إلى أخرى ليس مجرد عبث أيضًا، وكذلك لعب الورق والرهان على خيول السباق واقامة الحفلات المفاجئة وصيد البط البري وقرص الخادمات في الملهى الليلي واحتساء مزيد من الويسكي ومطاردة النساء في كل مكان والبحث عن حيل جديدة لرفع أسعار الأسهم في البورصة؟

إن كل شيء في العالم يبدو في الواقع مجرد عبث لا طائل تحته. إننا لا نستطيع أن نفعل شيئًا حيال هذه الحقيقة الصارمة، ولكننا نستطيع بالطبع أن نغمض أعيننا ونواصل الجري في نفس الاتجاه المليء بالعبث إلى أن ينتهي كل شيء بطريقة ما، ونستطيع أن نجعل ذلك يبدو مغريًا من الخارج حتى إننا لنحس بأنه ليس ثمة إنسان واحد في العالم بأسره سوف يرفض أن ينال خمسة وتسعين مليون دولار وطائرة خاصة يذرع بها السماوات من مدينة إلى مدينة.

ومع ذلك، فنحن نعرف أيضًا أن المواطن (جون والس) كان

Twitter: @alqareah

يملك ذلك بالضبط، وكان لا يجد شيئًا يفعله سوى أن يشرب زجاجة من الويسكي ويكتب الرسائل المريعة إلى قاضي الطلاق لكي يهدم بيته فوق رأسه متعمدًا.

أليس ذلك عملاً خارجًا عن نطاق المعقول؟

أليس الملل قوة متوحشة أكثر من أي طوفان في التاريخ بأسره؟ إننا نتوقع أن يواصل المواطن (جون والس) بحثه عن مزيد من الحيل لقتل ملله، ونتوقع منه أن يذهب لزيارة بلد لم يره من قبل أو مطاردة امرأة لم يطاردها من قبل أو صيد الأفيال بدل التماسيح.

ذلك ما نتوقعه نحن لأننا لم نعش تجربة المواطن (جون والس)، ولو أتيحت لنا تلك الفرصة حقًا، فإنه من المتوقع أن نجلس ذات يوم بدورنا ونفعل بالضبط ما فعله المواطن السعيد. فالعبث لا يمكن قهره بخمسة وتسعين مليون دولار، إنه يحتاج إلى أكثر من ذلك.

Twitter: @alqareah

الحلقة العاشرة 10

العبث الباهظ الثمن

هذا الجزء هو في الواقع بداية الدراسة في النص الأصلي، ولكنه لم يكن كافيا للبدء في نشر الدراسة نفسها دون التورط في مشكلة سوء العرض. فالحديث هنا يخص موضوعًا معقدًا ممتلئًا بالفروض النظرية التي لا يمكن نقدها باتزان إلا عن طريق الأمثلة المحددة. والمرء يستطيع بالطبع أن يكتشف (منطق) هذه الفروض ما دام ذلك يقع في نطاق الفكر العادي، ولكنه بالتأكيد لابد أن يحتاج أولاً إلى أن يحدد لنفسه نقطة النقاش الأصلي.

وأنا حاولت أن أفعل ذلك هنا بقدر ما أتيح لي من فرص العمل النظري، وبدأت هذه الدراسة بتسع حلقات إضافية تهدف إلى تحديد (نقطة النقاش) داخل مجموعة من الأمثلة المحددة. وعرضت خلالها فكرة الكفاءة المادية التي ظلت هدف

Twitter: @alqareah

الحضارات المتعاقبة بين عصر بناة الأهرام في مصر القديمة وبين عصر التكنولوجيا في الولايات المتحدة. ثم بدأت أعرض الأمثلة التي أثبتت بوضوح أن (زيادة الكفاءة المادية) لم يحل شيئًا من مشاكل الحياة، بل جعلها تبدو أكثر فظاعة وأكثر قدرة على إلحاق الضرر بالإنسان نفسه.

وأنا أود أن ألفت النظر هنا إلى العنوان الأصلي لهذه الدراسة لكي لا أفقد منحة الترابط. فالعودة المحزنة إلى البحر تعني في الواقع (عودة الحياة إلى أصلها محملة بخيبة الأمل في الكفاءة المادية). والحياة بدأت في البحر طبقًا لأقوال العلم والدين على السواء، ولكن أهدافها - فيما يبدو - لم تكن قط خاصة بزيادة الكفاءة المادية. فالألم الذي نراه في العالم عقاب كاف لإيضاح هذه الحقيقة لنا، وهو - من جهة أخرى - دليل لا يمكن تجاهله على أن الحياة أخطأت طريقها عبر الحضارات المادية وبات عليها أن تستدير مرة أخرى وتبدأ من جديد. فدعونا نضع أسئلتنا ببطء لكي لا ننزلق في مشاكل سوء الفهم، والسؤال العظيم بالطبع ما يزال نفس السؤال الذي طرحه الإنسان منذ بداية الخلق:

(لماذا بدأت الحياة)؟

والإجابة تتجه فى طريقين مختلفين كلية، أحدهما يعلن أن الحياة بدأت صدفة وأن هدفها الوحيد هو في الواقع أن تزيد كفاءتها المادية لكي تجعل بقاءها أمرًا ميسورًا وممتعًا. ونتيجة هذه الإجابة واضحة الآن في الولايات المتحدة، فالكفاءة المادية هنا تحققت بصورة فائقة، ولكنها لم تجعل أمر البقاء ميسورًا أو ممتعًا.

Twitter: @alqareah

ونحن نستطيع بالطبع أن ندخل في نقاش لا ينتهي عن جدوى الكفاءة المادية ما دام الإنسان نفسه يدفع ثمنها من سعادته، ونستطيع أيضًا أن نشير ببساطة إلى أن الشعب الأمريكى ـ الذي يملك أعلى مستويات الكفاءة المادية ـ معرض للانقراض في أي وقت، ومعرض لأن يجعل العالم ينقرض وراءه، ومعرض بصورة يومية إلى ملايين التفاصيل البشعة التي تجعل حياته خالية حقًا من المتعة.

فهل حققت الكفاءة المادية شيئًا من أهدافها؟ هل جعلت أمر البقاء ميسورًا وممتعًا؟ أم فعلت عكس ذلك بالضبط في حلقة واحدة منذ عصر بناء الأهرام إلى عصر سفن الفضاء؟.

أنا أترك هذه الأسئلة هنا بدون إجابة لكي لا أتورط في فخ ما من فخاخ إصدار الأحكام، فثمة ملايين من الناس الذين عاشوا والذين سيعيشون يعتقدون حقًا أن الكفاءة المادية حققت أهدافها، وأننا لا نحتاج إلى شيء آخر سوى موس الحلاقة الأفضل والطائرة الأفضل والطعام الأفضل. وهؤلاء الناس يؤمنون بالحضارة، ويؤمنون بأن ذلك وحده ـ مع قليل من التدين الظاهري ـ يستطيع أن يكفي. وأنا لا أملك الحق في رفض هذه الفكرة، ولكنني أملك الحق في عرضها بأمانة. وقد فعلت ذلك خلال جميع الأمثلة التي عرضتها من الولايات المتحدة، ولم يعد لدى ثمة ما أريد أن أفعله تجاهها سوى أن أتركها جانبًا وأبدأ في عرض الأجابة الأخرى على السؤال نفسه: (لماذا بدأت الحياة؟). والإجابة الأخرى تقول ببساطة إن الحياة لم تبدأ بالصدفة بل بدأت بتجلي روح الله في المادة،

Twitter: @alqareah

وأن ذلك لابد أن يعني أن الكفاءة المادية لا تستطيع أن تكون هدف الحياة كلها. فالكفاءة المادية تخص المادة وحدها، والحياة تركيب من المادة وشيء آخر مخالف تمامًا، ونحن لا نستطيع أن نتجاهل ذلك الشيء دون أن نتجاهل في الواقع نصف وجودنا.

وهذه الإجابة تتحدد بوضوح عبر نقطتين: النقطة الأولى، أن الحياة تبدأ بتجلي الروح في المادة، وأننا عندما ننسى هذه الحقيقة ونركز انتباهنا على المادة وحدها - أي على زيادة الكفاءة المادية - فنحن في الواقع ننسى نصف أنفسنا.

والنقطة الثانية، أن كل صور المادة محكوم عليها بالموت، وإذا كانت الحياة مجرد محاولة لزيادة كفاءة تلك المادة فهي في الواقع محكوم عليها بالعبث.

وذلك يعني ببساطة أن الكفاءة المادية ليست هدف الحياة، وأن الإنسان الذي خرج من البحر عبر معجزة الخلق لم يخرج في الواقع لكي يحصل على موس الحلاقة الأفضل أو الطائرة الأفضل أو المدفع الرشاش الأكثر كفاءة. بل خرج لتأدية مهمة أخرى من نوع شبه مختلف ثم خدعته مطالب (جسده) الضرورية المتمثلة في إيجاد الطعام والمأوى، وقادته إلى بناء حضارته المادية التي قامت بطبيعتها على زيادة الكفاءة الآلية منذ محاريث قدماء المصريين إلى المحاريث الميكانيكية الحديثة في حقول كاليفورنيا.

فهل تملك هذه الإجابة حاجتها من المنطق؟

أنا أريد أن ألفت النظر هنا إلى أن كلمة (الحياة) ليست في الواقع اصطلاحًا محددًا، فنحن لانعرف أصلاً ما هو الفرق بين

Twitter: @alqareah

الشيء الحي والشيء غير الحي، ولا نعرف أيضًا كيف تبدأ الحياة أو كيف تنتهي. إن كل ما نعرفه مجرد (حالات) من المادة، تبدو في بعضها (حية أو متحركة) وتبدو في بعضها (ميتة أو جامدة). وأنا أعتقد أن أفضل وسيلة للخروج من هذا المأزق هي أن نتجاهل الكلمات الغامضة أصلاً ونشرع في النظر المباشر إلى العالم كله باعتباره قطعة واحدة.

والنظر المباشر يقودنا ببساطة إلى التحقق من وجود ثلاث (حالات) للمادة:

الحالة الأولى: المادة غير المتكاثرة مثل الشمس والقمر والأرض والجبال.

الحالة الثانية: المادة المتكاثرة مثل النبات والحيوان والإنسان والجراثيم.

الحالة الثالثة: الفراغ القائم بين كل مادتين مثل الفراغ بين الشمس والقمر أو الفراغ بينك وبين جارك.

فهذا العنصر الثالث ـ رغم أنه لا يشبه المادة المعروفة لنا ـ تسير فيه مجموعة من القوانين المألوفة مثل قانون الجاذبية وقوانين الثقل والجذب والطرد، وهو لابد أن يشغل الحيز القائم بين مادتين لكي يوصل إليهما هذه القوانين، أي أنه في الواقع مظهر آخر غير معروف للمادة العادية، ولكنه بدوره يشغل فراغًا يمكن قياسه في أغلب الأحيان.

هذه الحالات الثلاثة للمادة تتمثل بوضوح كامل في الكون بأسره. فنحن نملك الشمس التي لا تستطيع أن تتكاثر رغم أنها تستطيع أن تتقسم، ونملك المادة الحية التي تستطيع أن

Twitter: @alqareah

تتكاثر، ولكنها لا تستطيع أن تنقسم دون أن تفقد قدرتها على الحياة، ونملك الفراغ القائم بين الشمس من جهة وبين الوحدات المادية الأخرى، والذي يعمل على ربط الكواكب بالشمس عن طريق قوانين الجاذبية، وربط الكائنات الحية بالشمس أيضًا عن طريق قوانين الحياة المعروفة لنا.

وهذه في الواقع وحدة كاملة تعمل بانتظام داخل مجموعتنا الشمسية، ولكنها لا تعمل بمفردها، بل داخل مجموعة أخرى من القوانين العامة التي يبدو في مقدمتها قانونان محددان لبدء الحياة:

القانون الأول: أن الفرق بين المخلوق الحي وبين المخلوق غير الحي يكمن في الاعتماد على الماء بصورة مباشرة أو بصورة غير مباشرة.

والقانون الثاني: أن المادة الحية لا تستطيع أن تواصل بقاءها إلاّ (باستهلاك) مادة أخرى. وليس ثمة مادة معروفة في الكون لا تفعل ذلك سوى الشمس التي تستهلك نفسها وتراب الكواكب في صورته غير الصلدة المعروفة في ذرات الرمل أو في صورته الصلدة المعروفة في الحجر والجبال. أما بقية المواد التي ندعوها (بالكائنات الحية) فهي جميعًا (تعيش) على مواد سواها.

ذلك يعني أن (الحياة) بدأت في الواقع بإيجاد المادة القادرة على التكاثر عن طريق إنتاج الطاقة بطريق الاستهلاك،

Twitter: @alqareah

فدعوني أضع بين أيديكم موجز هذه الحقيقة كما بدأ في معجزة القرآن.. ﴿ إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ ﴾(*).

وأنا أدعوكم إلى أن تلاحظوا أن القرآن لم يذكر (البحار) لأن الحياة في الواقع بدأت بوصول الماء، والآيات تشير إلى طبيعة الحياة المتميزة، فالسموات (أى الشمس وبقية النجوم) والأرض (أي ذرات التراب) والجبال (أي ذرات التراب الصلدة) لا تملك منحة الحياة لأنها لا تملك منحة التكاثر أو منحة الاستهلاك. ثم بدأ ذلك كله بوصول الماء الذي وجدت فيه الحياة وانطلقت في طريقها العظيم إلى أن تم إنتاج الإنسان.

والآيات تقرر في وضوح ﴿.. وَحَمَلَهَا الإِنسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولاً ﴾، فالظلم هنا يشير إلى قبول الصراع بين الإنسان وبين حاجته إلى استهلاك المادة، أي قبول البحث عن الله داخل قيود المطالب المادية، والجهل يشير إلى أن المادة الحية بطبيعتها لا تستطيع أن تعرف الله، لأنها لا تستطيع أن تعرف إلاّ ما تحتاج إلى أن تستهلكه، وأن الأمر سوف يستدعى وصول الأنبياء إلى جانب قدرات الفرد العقلية.

فدعونا نتابع هذه النقطة بالتفصيل كما تجلّت في خلق الإنسان.

(*) الآية (72) من سورة الأحزاب.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الحادية عشر 11

العودة المحزنة إلى البحر

أقدم وثيقة دينية تتحدث عن خلق الإنسان وردت في التوراة، في منتصف الإصحاح الثاني من سفر التكوين. والنص يقول: (وجبل الرب الإله آدم ترابًا من الأرض ونفخ في أنفه نسمة حياة فصار آدم نفسًا حية. وغرس الرب الإله جنة في عدن شرقاً ووضع هناك آدم الذي جبله، وأنبت الرب من الأرض كل شجرة شهية للنظر وجيدة للأكل. وشجرة الحياة فى وسط الجنة وشجرة معرفة الخير والشر. وأخذ الرب الأله آدم ووضعه في جنة عدن ليعملها ويحفظها، وأوصى الرب الإله آدم قائلاً: من جميع شجر الجنة تأكل أكلاً، وأما شجرة معرفة الخير والشر فلا تأكل .منها لأنك يوم تأكل منها تموت موتا ..).

والملاحظ هنا أن نص التوراة . إلى جانب صياغته المثيرة

Twitter: @alqareah

للشك ـ يتورط أيضًا في خطأ لغوي محدد، فالشجرة المحرمة تدعى (شجرة معرفة الخير والشر)، ولكن الرب يقول لآدم إنه إذا أكل منها فسوف يموت. والموت لا يعمل بمثابة نقيض لمعرفة الخير والشر، ولكنه يعمل بمثابة نقيض لفكرة الخلود.

والشجرة نفسها تدعى في نصوص دينية أخرى باسم (شجرة الخلود)، وهو اسم يطابق بقية النص ويجعل التحذير من الموت يصل في مكانه بالضبط. أما الإصرار على دعوة تلك الشجرة باسم (شجرة معرفة الخير والشر) فإنه عمل خال من المنطق بالنسبة لقول الرب (لأنك يوم تأكل منها تموت موتا).

هذا نصف الخطأ اللغوي، والنصف الآخر يبدأ عند خلط التوراة بين شجرة الحياة وشجرة معرفة الخير والشر. فالفرق ليس واضحًا في النص، والمرء لا يستطيع أن يحدس ما إذا كانت التوراة تعني شجرة واحدة باسمين مختلفين أم تعني حقًا شجرتين مختلفتين تنبتان في وسط الجنة.

والظاهر أن النص الأصلي كان يضم اسمًا واحدًا فقط هو شجرة الحياة، وأن الاسم الثاني أضيف بعد ذلك لمتابعة الفكرة الفلسفية القائلة بأن (المعرفة) هي بداية الشقاء الإنساني، وأن الحيوان ـ بناء على هذا القياس ـ يظل دائمًا أسعد حالاً من الإنسان.

ثم تتابع التوراة قصة (الخروج من الجنة) وتنفرد مرة أخرى بالإشارة المفاجئة إلى أن خروج آدم من جنة عدن تم بمثابة عقاب له على رغبته في المعرفة. ولكن التوراة لا تضع رمز تلك الحادثة في ظاهرة (الشيطان والشر)، بل تعلن ببساطة أن آدم

Twitter: @alqareah

وقع فريسة خدعة عادية قامت بها (الأفعى) التي كانت تسكن في الجنة: (وكانت الحية أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة: أحقًا قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ فقالت المرأة للحية: من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا. فقالت الحية للمرأة: لن تموتا بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر. فرأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل وأنها بهجة للعيون وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضًا معها فأكل، فانفتحت عيونهما وعلما أنهما عريانان).

والمرء لا يدرى ما الذي يدعو التوراة إلى الاعتقاد بأن الحية هي أكثر مخلوقات الله قدرة على الخداع. فالواقع أن ذلك الحيوان الأخرق لا يملك من صفات الذكاء شيئًا على الإطلاق. بل إن مجموعة الزواحف بأسرها تقف عند بداية سلم التطور باعتبارها أكثر المخلوقات بدائية بعد الأسماك مباشرة.

هذا من جهة. ومن جهة أخرى فإن الرب يعاقب الحية بعد ذلك قائلاً في منتصف الإصحاح الثالث: (لأنك فعلت هذا ملعونة أنت من جميع البهائم ومن جميع وحش البرية. على بطنك تزحفين وترابًا تأكلين كل أيام حياتك). والمرء يتصور أن الحية كانت تزحف على بطنها في الجنة أيضًا، وأنها إذا لم تكن تزحف على بطنها فإنها لم تكن حية. أي أن العقاب ليس واضحًا في النص.

والظاهر أن التوراة تتبنى هنا فكرة وثنية قديمة تتخذ

Twitter: @alqareah

الأفعى رمزًا للحكمة، والظاهر أيضًا أن هذا الخلط بين الحكمة وبين الخداع وقع نتيجة العبث بالنص الأصلي. فالفكرة الأولى تضم حقيقة مؤداها أن آدم خرج من الجنة نتيجة (عجزه) عن إبداء الطاعة الكلية تجاه أوامر الرب، ولكن أسلوب التوراة في التنفيذ يبدو مشوشًا إلى حد لا يمكن إلحاقه بأي نص سماوي.

وتبقى بعد ذلك خمس نقاط محددة عبر أصل النص:

الأولى، أن آدم خلق من تراب، وأن التراب لا يقف رمزًا على بساطة الأصل، بل رمزًا على إحداث النمو في المادة. فليس ثمة شيء في العالم يستطيع أن يكتسب صفة الحياة بمعناها المعروف لنا إلاّ إذا غرس نفسه في التراب بطريقة مباشرة أو غير مباشرة. فالنبات يتغذى من الأرض، والحيوان يتغذى على النبات، والجرثومة تتغذى على الجسد الذي جاء أصلاً من الأرض. والدائرة تتم تحت كل الظروف بلا انقطاع خلال خط واحد ينحني عند نقطة الأرض، ويتم دورته كلها حتى يعود إلى نفس النقطة من جديد.

وأنا أريد أن ألفت النظر هنا إلى أن إشارات الكتب الدينية الخاصة ببدء الخلق من التراب هي في الواقع الحقيقة العلمية المعترف بها من قبل جميع النظريات، وأن عناصر التراب الأولى ما تزال موجودة في معظم المواد الحية بما في ذلك الإنسان.

النقطة الثانية: أن المادة الحية ـ التي تم خلقها من التراب ـ تتميز بصفة خاصة لا توجد في أية مادة عداها، هذه الصفة هي (الحاجة إلى إنتاج الطاقة عن طريق الاستهلاك). فالحياة

Twitter: @alqareah

طاقة مستمرة تنجم داخل المادة بطريق استهلاك مادة أخرى. وإذا عجز الكائن الحي عن إيجاد ما يحتاج إلى استهلاكه من الغذاء فإنه لا يملك فرصة أخرى سوى أن يفقد قدرته على إنتاج الطاقة اللازمة ويتحول إلى حالة السكون المعروفة في لغاتنا باسم الموت.

النقطة الثالثة: أن حاجة المادة الحية إلى استهلاك وقود الطاقة هي فى الواقع مصدر الصراع بين الأحياء جميعًا. فليس ثمة نقطة واحدة تجمع مادتين في اتجاهين مضادين سوى رغبة إحدى المواد في استهلاك الأخرى، أو ما ندعوه نحن بصراع البقاء.

النقطة الرابعة: أن المادة الحية تحتاج أصلاً إلى إنتاج الطاقة لكي تتمكن من تجنب حالة السكون الكلي عن طريق التناسل أو التكاثر أو الانقسام، أو ما ندعوه نحن بغريزة حفظ النوع.

النقطة الخامسة: أن المادة الحية ـ سواء في الإنسان أو في غيره ـ تتجه غريزيًا للدفاع عن نفسها ضد الموت، ولكنها لا تعرف شيئًا محددًا عن تلك الظاهرة سوى أنها (عكس المادة الحية)، أي حالة خاصة للمادة تخلو فيها من الطاقة. فالكائن الحي يسعى على الدوام للحصول على ميزة الحصانة من الموت، أي ظاهرة الخلود، باعتبار أن المادة الحية تستطيع أن تنتج الطاقة إلى مالا نهاية، ولكنه هنا بالضبط يرتكب أسوأ أخطائه لأن القانون العام، الكلي الشمول والنفاذ، لا يسمح بخلود الطاقة في المادة إلاّ بمقدار ما يسمح بتحقيق الزيادة من

Twitter: @alqareah

النقصان. وما دامت المادة تستهلك الطاقة فلا مفر على الإطلاق من مواجهة حالة النضوب في نهاية المكان مهما كانت الأعداد لا متناهية.

وأنا أريد أن ألفت النظر مرة أخرى إلى نص التوراة الذي أشار بوضوح إلى أن خروج آدم من الجنة جاء عقابًا له على أكله من شجرة الحياة، أي شجرة الخلد. فالواقع أن مأساة المادة الحية تبدأ بالضبط عند عجزها الكلي عن قبول فكرة الموت وانطلاقها المذهل للبحث عن مصادر الطاقة في العالم عن طريق استهلاك أي مادة أخرى. تلك الدوامة المتناهية القسوة التي تقف مسؤولة عن جميع الآلام والشرور والقتل والسلب الجشع والاستغلال والخداع والعنف المعروفة في عالم الأحياء. أو ـ بكلمة شعرية واحدة ـ عن (أعمال الشيطان).

وموجز الرواية مرة أخرى أن انبثاق الحياة في العالم جاء في مرحلة ثالثة بعد انبثاق القوانين العامة في الفضاء وتجسد المادة الميتة في السماوات والأرض والجبال، وأن المادة الحية لا تتميز في الواقع عن مصدرها الأصلي إلاّ بقدرتها على إنتاج الطاقة لتحقيق التكاثر أو الانقسام، ولكن إنتاج الطاقة لا يتم تلقائيًا.. بمعنى أن المادة الحية لا تستطيع أن تفعل ذلك إلاّ (باستهلاك) مادة أخرى ودخولها مع العالم في صراع يهدف إلى الدفاع عن نفسها ضد الموت. أي المحافظة على شكل المادة الحية.

هذه المهمة يستحيل تنفيذها دون التورط في الصدام. فالإنسان لا يستطيع أن يواصل الحياة إلاّ إذا حصل على حاجته من الغذاء، سواء كان ذلك بطريق مباشر مثل جني

Twitter: @alqareah

الثمار من الغابة، أو بطريق غير مباشر مثل نهب مخازن جاره الضعيف. والإنسان لا يملك فرصة أخرى للاختيار لأنه لابد أن يحافظ على بقائه غريزيًا، ولكنه يملك أكثر من فرصة لتحديد طريقه تجاه هذه المهمة. فهو بوسعه ألاّ يجعل بقاءه على حساب بقاء آخر، وبوسعه أيضًا أن يوغل في النهب والقتل وينحاز إلى جانب الشيطان، وليس ثمة حد فاصل هنا بين النبات وبين الحيوان والإنسان، فكل مادة حية تخضع لهذا القانون الشامل، ولكن الإنسان وحده ـ والإنسان وحده فقط ـ هو الذي يستطيع أن يتجاوز حدود ما يحتاج إليه ويقع فريسة شهواته.

وليس ثمة مادة حية أخرى تملك ظاهرة الشهوة سوى الإنسان.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الثانية عشر 12

فى الحلقة الماضية بدأت أعرض هنا مجموعة النصوص الخاصة بخروج الإنسان من الجنة كما وردت في التوراة. وكنت أهدف من وراء هذا العمل إلى تحديد خمس نقاط بالغة الأهمية بالنسبة لكتاب العهد القديم:

الأولى: أن خروج آدم من الجنة تم بمثابة عقاب له على أكله من شجرة الخير والشر.

والثانية: أن مأساة الخروج لم تحقق سوى هدف العقاب وحده، فالإنسان فقد مكانه في الجنة، ولكنه لم يفقد قدرته على معرفة الخير والشر.

والنقطة الثالثة: أن نوع العقاب الذي تشير إليه التوراة لايبدو في الواقع وطيد الصلة بنوع الذنب، فالإنسان يأكل من الشجرة المحرمة لكي (يتعلم) الفرق بين الخير والشر، ولكن الرب الإله يعاقبه بوضعه تحت طائلة (الموت).. وليس ثمة علاقة واضحة بين (المعرفة) وبين (الموت).

Twitter: @alqareah

النقطة الرابعة، أن الخروج من الجنة لم يتم على أي حال برغبة من آدم في المعرفة، بل تم بطريق الخداع وحده الذي ترمز إليه التوراة (بالحية).

النقطة الخامسة: أن التوراة تقف وحدها لتشير إلى ظهور مشكلة المعرفة باعتبارها مصدر الشقاء في العالم، مخالفة بذلك كل النصوص الدينية المعروفة، بما في ذلك القرآن الذي يعلن منذ البداية أن آدم وصل إلى الجنة بعد أن علمه الله الأسماء كلها، أي أعطاه منحة المعرفة، وأن العقاب حدث بعد ذلك لرغبة آدم في (الخلود) وحده.

هذه النقاط الخمس لابد من تسجيلها هنا لكي تعمل بمثابة قاعدة عامة لأصل الدراسة التي تستطيع أن تحدد موضع العبث في نص التوراة، في محاولة لإلقاء مزيد من الضوء على قصة الحياة كما تصل عبر النصوص الدينية.

والنص الأول - الذي لا يستطيع المرء أن يتجاهله قط - لابد أن يتضمن الإصحاح الأول من سفر التكوين، حيث تضع التوراة قصة خلق العالم منذ البداية. وأنا هنا أرغب في أن أعرض ذلك النص كاملاً قبل أن أستمد منه أية إشارات خاصة.

تقول التوراة:

(في البدء خلق الله السماوات والأرض، وكانت الأرض خربة وخالية، وعلى وجه القمر ظلمة، وروح الله يرف على وجه المياه، وقال الله ليكن نور فكان نور، ورأى الله النور أنه حسن، وفصل الله بين النور والظلمة، ودعا الله النور نهارًا والظلمة دعاها ليلا. وكان مساء وكان صباح يومًا واحدًا.

Twitter: @alqareah

وقال الله ليكن جلد في وسط المياه، وليكن فاصلاً بين مياه ومياه، فعمل الله الجلد وفصل بين المياه التي تحت الجلد والمياه التي فوق الجلد، وكان كذلك. ودعا الله الجلد سماء. وكان مساء وكان صباح يومًا ثانيًا.

وقال الله لتجتمع المياه تحت السماء إلى مكان واحد ولتظهر اليابسة، وكان كذلك. ودعا الله اليابسة أرضًا، ومجتمع المياه دعاه بحارا، ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله لتنبت الأرض عشبًا وبقلاً يبزر بزرًا وشجرًا ذا ثمر يعمل ثمرًا كجنسه بزره فيه على الأرض. وكان كذلك. فأخرجت الأرض عشبًا وبقلاً يبزر بزرًا كجنسه وشجرًا يعمل ثمرًا بزره فيه كجنسه. ورأى الله ذلك أنه حسن. وكان مساء وكان صباح يومًا ثالثًا.

وقال الله لتكن أنوار في جلد السماء لتفصل بين النهار والليل، وتكون لآيات وأوقات وأيام وسنين. وتكون أنوارًا في جلد السماء لتنير على الأرض. وكان كذلك. فعمل الله النورين العظيمين. النور الأكبر لحكم النهار والنور الأصغر لحكم الليل والنجوم . وجعلها الله في جلد السماء لتنير على الأرض، ولتحكم على النهار والليل ولتفصل بين النور والظلمة. ورأى الله ذلك أنه حسن . وكان مساء وكان صباح يومًا رابعًا.

وقال الله لتفض المياه زحافات ذات نفس حية، وليطر طير فوق الأرض على وجه جلد السماء. فخلق الله التنانين العظام وكل ذوات الأنفس الحية الدبابة التي فاضت بها المياه كأجناسها، وكل طائر ذى جناح كجنسه. ورأى ذلك أنه حسن. وباركها الله قائلاً أثمرى واكثرى واملأى المياه في البحار، وليكثر الطير على الأرض. وكان مساء وكان صباح يومًا خامسًا).

Twitter: @alqareah

والنص عند هذا الحد يعرض قصة خلق العالم من بداية (الظلمة) إلى انبثاق الحياة في المادة، ولكن ترتيب الوحدات لا يبدو متناسقًا بأى حال. فالإشارة إلى (المياه) التي وردت في أول النص إشارة غامضة مثيرة للريبة، خصوصًا عندما يتذكر المرء أن توفر الماء على الأرض هو المرحلة السابقة لظهور الحياة مباشرة، وأن ذلك قد تم في الواقع بعد مجموعة هائلة من المراحل البعيدة المدى التي تمثلت في صنع الأرض شبه الباردة من كتلة الغاز الملتهب.

هذا من جهة.

ومن جهة أخرى فإن إشارة التوراة إلى عامل (الزمن) في العالم تتم بغموض متناه خلال جميع الأيام. فالزمن ليس وحدة مادية ولكنه وحدة توجد تلقائيًا بمجرد توفر المادة. والمرء يستطيع أن يرى بوضوح أن نص التوراة لا يعرف هذه الحقيقة الأولية، ولا يعرف أن (الزمن) مجرد بُعد رابع يحدده مكان المادة من بقية الأبعاد الثلاثة المعروفة.

ثم يصل بعد ذلك النص الخاص بخلق الإنسان لأول مرة:

(وقال الله لتخرج الأرض ذوات أنفس حية كجنسها، بهائم ودبابات ووحوش أرض كأجناسها. وكان كذلك، فعمل الله وحوش الأرض كأجناسها والبهائم كأجناسها وجميع دبابات الأرض كأجناسها ورأى الله ذلك أنه حسن. وقال الله نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا. فيتسلطون على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى البهائم وعلى كل الأرض وعلى جميع الدبابات التي تدب على الأرض. فخلق الله الإنسان على صورته. على صورة الله خلقه. ذكرًا وأنثى خلقهم وباركهم الله،

Twitter: @alqareah

وقال لهم أثمروا واكثروا وأملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا على سمك البحر وعلى طير السماء وعلى كل حيوان يدب على الأرض. وقال الله إني قد أعطيتكم كل بقل يبزر بزرًا على وجه الأرض، وكل شجر فيه ثمر شجر يبزر بزرًا لكم يكون طعاما. ولكل حيوان الأرض وكل طير السماء وكل دبابة على الأرض فيها نفس حية أعطيت كل عشب أخضر طعاما. وكان كذلك).

وأنا أرغب في أن أتوقف هنا لكي أشير إلى نقطة التناقض الواضح التي تتورط فيها نصوص التوراة بمجرد أن تشرع في سرد قصة الإنسان. فالأمر القاطع الصادر من الرب الإله إلى جميع الناس يتمثل في قوله: (أثمروا واكثروا واملأوا الأرض وأخضعوها وتسلطوا). وهي إشارة واضحة إلى أن الإنسان خلق مزودًا بمنحة المعرفة، فليس ثمة ميزة أخرى يمتلكها الإنسان على بقية وحدات العالم الحية سوى ميزة المعرفة والقدرة على إصدار الحكم بالحدس أو التجربة وتحديد وجهة الخير والشر. ولكن التوراة تعلن بعد ذلك أن خروج الإنسان من الجنة تم بمثابة عقاب له على أكله من شجرة (معرفة الخير والشر)، أى أن الرب الإله لم يمنحه شيئًا في الواقع، ولكن الإنسان نفسه قرر أن ينال ما يحتاج إليه بغض النظر عن إرادة القانون العام.

هذه الأسطورة هي بالضبط قصة بروميثيوس(*)، وهي بالضبط أيضًا قصة الحصول على النار التي تروى بطريقة شعرية موغلة في التعقيد الوثني الخالي من المنطق. فآدم يخالف تعاليم الرب الإله بأكله من الشجرة المحرمة المدعوة

(*) العملاق الذي حمل النار إلى البشر، حسبما ورد في الأساطير اليونانية.

Twitter: @alqareah

(بشجرة معرفة الخير والشر)، وهو ينال عقابه مقابل هذه المعصية، ولكنه لا يفقد ما حصل عليه. أي بالضبط كما حدث في قصة الحصول على النار من عرية الشمس ضد إرادة آلهة الأوليمب، وهو خطأ في تصور نوع الإرادة الإلهية التي لا يمكن خرقها بأي حال دون أن تصير - في لحظة واحدة - مجرد إرادة بشرية عادية.

أما النصوص الدينية التي تشير بوضوح إلى أن خروج آدم من الجنة تم عقابًا له على أكله من الشجرة المحرمة المدعوة (بشجرة الخلد)، فإنها لا تتورط في خطأ التوراة، لأن الإنسان - رغم أنه ارتكب معصيته مقررًا أن يخالف إرادة الله - لم يستطع أن ينال شيئًا في نهاية المطاف سوى العقاب وحده. وقد تم طرده من الجنة وتم حرمانه من الخلود أيضًا في اتساق يليق بشمول الإرادة الإلهية الكاملة النفاذ.

وأنا أتمنى أن تنال هذه النقطة حاجتها من الوضوح. فالفرق بين كلمة المعرفة وبين كلمة الخلود ليس مجرد فرق لغوي في معنى الكلمتين العام. إنه يمتد بثبات لكي يشمل الصورة الهائلة الاتساع للكون بأسره، ويقف بمثابة جدار حاسم بين النصوص الدينية الكاملة التجريد وبين الأفكار غير الناضجة التي تزدحم بها معظم الديانات الوثنية أو شبه الوثنية.

والقرآن الكريم يلح في تكرار هذه النقطة بطريقة لا يمكن تفسيرها على وجه كامل إلاّ إذا تذكر المرء نوع الخطأ الذى تورطت فيه نصوص العهد القديم، ووضع نصب عينيه ما تعنيه كلمة الخلود في مقابل كلمة (الخير والشر).

Twitter: @alqareah

وقد ذكر القرآن ذلك في سورة طه: ﴿ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴾(*)، وذكره بالتفصيل في سورة البقرة: ﴿وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(**).

والإشارة إلى أن أمر البقاء على الأرض مجرد حالة مؤقتة إلى حين، تبدو هنا أكثر وضوحًا من ذكر كلمة (الخلود نفسها، فالواقع أن الخلود ليس مجرد لا نهاية زمنية، بل هو خروج من أبعاد الزمن كلية، أما الاستقرار على الأرض فلابد أن تحصره كلمة ـ إلى حين ـ بوضوح أكثر). هذه النقطة يمكن عرضها بتفصيل أكثر لكي تظهر ما تملكه من الإعجاز.

(*) الآية (120) من السورة.

(**) الآيتان (35 , 36) من السورة.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الثالثة عشر 13

في الحلقة الماضية كنت أقول هنا إن الفرق بين كلمة (المعرفة) وبين كلمة (الخلود) ليس مجرد فرق لغوي في معنى الكلمتين العام، فالنصوص الدينية المتسمة بالأصالة لا تنطلق من نقطة المعنى اللغوي وحده دون أن تتورط في ظاهرة سوء التفسير التي تستطيع ـ في معظم الأحيان ـ أن تقود إلى كارثة فكرية محققة.

إن الفرق بين الكلمتين فرق في تصور العالم نفسه. فالإنسان الذي خرج من الجنة لمجرد وقوعه فريسة الخداع من جانب (الأفعى) يبدو ـ في الواقع ـ بمثابة طفل معتوه، خال من النوايا الحسنة والسيئة على السواء، يضطر إلى دفع ثمن الجريمة التي لم يقصد أن يرتكبها بطريقة مفتقرة إلى العدالة.

وهذا المسخ لا علاقة له بالإنسان. إنه مجرد حيوان مدلل، يظفر برضاء الله بالمجان، ويسكن في جنته حتى يتعرض لمحنة

Twitter: @alqareah

التجربة خالى اليدين من أسلحة المعرفة النهائية، ويسقط على الفور ضحية الخداع الساذج. والمرء يستطيع أن يتصور مأساة هذا المخلوق الخرافي باعتبارها لعبة شعرية حافلة بالظلال، ولكنها عندما تصل داخل نص سماوي فإنها في الواقع تجعل العالم كله مجرد صدفة تبعث على الرثاء. فالإنسان لابد أن يتحمل مسؤولية خطيئته. إن ذلك بالضبط هو البداية التي يمكن قبولها للاعتراف بأصالة الحياة نفسها. أما إذا تأخر ذلك المخلوق إلى مرتبة الحيوان وتنصل من مسؤولية الخطيئة باعتبارها مجرد حدث غير معقول، فإن المرء لن يجد ثمة بُدٌّ من أن ينفض يديه من النص الديني كلية ويتجه للعمل بمبادئ الفلسفة.

وهذا ما حدث بالنسبة لدراسات التوراة، وهو ما يستطيع أن يحدث أيضًا بالنسبة لأي نص ديني آخر يعجز عن إيجاد نقطة الصدام الحقيقى بين الإنسان وبين العالم، تلك الكارثة المحزنة التي انتهت بانتصار الحضارة وهزيمة الإنسان داخل حلقة واحدة من التقدم المادي المتجه دائمًا إلى الوراء.

فلماذا ذهب الإنسان إلى الجنة أصلاً ما دام الله يعرف أنه سيخرج منها؟

ولماذا تبدأ مسيرة الحياة بارتكاب الخطيئة قبل أن تخرج من الجنة؟

ولماذا يضع الله شجرة محرمة في وسط الجنة، ما دام يعرف أن الإنسان سيأكل منها على أي حال؟

ولماذا يحتاج الله إلى ظاهرة التجربة؟

Twitter: @alqareah

أنا أقول هنا إن إجابة هذه الأسئلة ليست عملاً خارق الصعوبة، بل إنها ـ في الواقع ـ إجابة في متناول اليد، يستطيع المرء أن يتابعها بوضوح عبر معظم النصوص الدينية المتوفرة في العالم، وخاصة عبر نصوص القرآن. ولكنني أعرف أيضًا أن الظروف المتوفرة أمام أي دراسة جادة في نصوص الكتب المقدسة ليست ظروفًا ملائمة بأي حال. فالمرء لا يستطيع أن يتجنب مأساة سوء الفهم مهما بذل من الجهد. إن ذلك جزء من الثقافة المعاصرة في العالم كله، وبالذات في البلدان النامية، وليس ثمة بُدّ في نهاية المطاف من أن يضع المرء الكتب المقدسة جانبًا ـ لكي تبقى تحت تصرف الفقهاء وحدهم ـ وينطلق عبر الطريق الطويل البالغ الخشونة ـ الذي يدعى بالفكر المجرد ـ لكي يعرف الحقائق بمبادئ الفلسفة. فما هو (الخلود) الذي دفع الإنسان ثمنه بمأساة الخروج من الجنة؟

الإجابة بإيجاز أن الخلود ليس هو البقاء الأبدى داخل حيز الزمن، بل هو الخروج من نطاق الزمن كلية. فنحن هنا على الأرض، وذلك يعني المادة الحية وغير الحية، نعيش داخل ثلاثة أبعاد محددة:

بُعد طولي يسقط من أعلى، وبُعد عرضي يمتد بين الشمال وبين الجنوب، وبُعد عرضي معاكس يمتد بين الشرق وبين الغرب. وليس ثمة بُعد آخر تستطيع المادة أن تتحرك خلاله سوى هذه الجهات، ولكن المادة على أي حال تستطيع أن تتحرك داخل هذه الجهات، وتستطيع أن تغير مكانها كما تشاء، فأنت بوسعك أن تمشى فى اتجاه الشمال أو الجنوب أو

Twitter: @alqareah

الشرق أو الغرب، وبوسعك أيضًا أن تطير في اتجاه السماء أو تهبط على خط مستقيم في اتجاه باطن الأرض.

الحركة داخل هذه الأبعاد الثلاثة متوفرة للمادة، ولكن العالم يضم أيضًا بُعدًا رابعًا لا تستطيع المادة أن تتحرك خلاله شبرًا واحدًا. هذا البعد هو الذي ندعوه نحن في لغتنا اليومية بالزمن. فالمرء لا يستطيع أن يمشي داخل الزمن، ولكنه يطفو معه في اتجاه واحد دائمًا. وأنت ليس بوسعك أن تعود خطوتين إلى الوراء لكي ترى (العام الماضي) مرة أخرى. وليس بوسعك أيضًا أن تسرع خطوتين إلى الأمام لكي ترى (العام القادم) قبل أن يصل. إنك تطفو في نقطة واحدة داخل ثلاثة أبعاد مادية، وتمشي عبر الزمن في خطوة متسقة مع كل جزء في العالم، وأنت لا تحس بهذا القفص المغلق من جميع الجهات لأنك ولدت منذ البداية بداخله، وأنت أيضًا لا تستطيع أن تخرج منه إلا إذا خرجت من ظاهرة الحياة نفسها.

ذلك يعني أن الموت هو الطريق الوحيد خارج البعد الرابع، أي خارج الزمن، وذلك يعني أيضًا أن (الخلود) - أي البقاء وراء عنصر الزمن - جزء من الموت وليس جزءًا من الحياة. والمرء لا يجوز أن يتصور هنا أن الموت يعني العدم، فذلك - في الواقع - تصور لا دليل عليه. إن الصفة الوحيدة المعروفة للموت أنه خروج من البعد الرابع، ولكن ذلك لا يعني أنه خروج من بقية الأبعاد التي لا نعرف عنها شيئًا.

فماذا حدث في الجنة؟

لقد أراد الإنسان أن يجمع بين صفة الحياة وبين صفة

Twitter: @alqareah

الخلود. ذلك يعني أنه أراد أن يجمع بين البقاء المادي الحي وبين البقاء الأزلى غير المادي. وكان الإنسان ـ في الواقع ـ يرتكب خطأ فكريًا في الدرجة الأولى، ولكنه كان أيضًا يرتكب خطيئة. فالرغبة في إبقاء المادة حرة من الموت يعني بالضبط الرغبة في منح المادة إحدى صفات الله. والمرء يستطيع أن يحس بموضع التناقض المحزن عندما يتذكر هنا أن المادة الحية تتميز بثلاث صفات محددة:

الأولى: أنها تحتاج دائمًا إلى مادة أخرى تستهلكها لكي تولد بداخلها الطاقة اللازمة لمواصلة الحياة.

الثانية: أنها تحتاج دائمًا إلى بداية لأن أصل المادة غير حي، والبداية تعني الزمن المعين الذي تولد فيه الحياة داخل المادة.

الثالثة: أنها تحتاج إلى شكل، لأن الحياة كما توجد في العالم لابد أن تسري داخل شكل هندسي معين.

وهذه الصفات الثلاثة هي بالضبط نقيض الصفات الواردة في الكتب المقدسة عن الله. فهو قائم بذاته، وهو مترفع عن الزمن، ومترفع عن الشكل. وهذا أيضًا ما قاله القرآن في سورة الإخلاص: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴿١﴾ اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿٢﴾ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ ﴿٣﴾ وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ ﴿٤﴾﴾.

فصفات الله هي بالضبط عكس صفات المادة الحية. والخلود ـ الذي هو أيضًا صفة الله ـ لا يمكن منحه لذلك النقيض المدعو بالإنسان ما دام مجرد كتلة من اللحم والعظم والدماء.

Twitter: @alqareah

ولكن ماذا يحدث بعد الموت؟

أنا أقول هنا إن الإجابة لا يجوز أن تعتمد على رعونة الميتافيزيقا(*) في استعمال الخرافات، فنحن لا نعرف شيئًا وراء ذلك الباب الموصد المدعو بالموت، ولكننا بالتأكيد نستطيع أن ننظر حولنا لكي نرى حقيقة بديهية واضحة.

هذه الحقيقة، أن الموت يبدأ دائمًا بإلغاء الصفات الثلاثة المعروفة للمادة الحية، فهو يوقف إنتاج الطاقة بداخلها، أي يحررها من ظاهرة الحاجة إلى الاستهلاك، وهو يوقف الحركة الذاتية فيها، أي يحررها من ظاهرة (البداية) التي انطلقت في لحظة الميلاد، وهو أيضًا يعيد تركيب جزئياتها، أي يحررها من الشكل.

أما ماذا يحدث بعد ذلك فنحن لا ندري. إن كل ما لدينا من التفاصيل مستمدة من الكتب المقدسة وفي مقدمة هذه التفاصيل أن صفة الخلود التي خرج الإنسان من الجنة بسببها تمنح له على الفور، سواء فى مقابل حسناته أو مقابل سيئاته. أي أن الخطيئة الأولى ليست في الواقع خطيئة كلية، بل هي جزء من إرادة القانون العام الذي قرر أن يمنح الحياة هذا القالب الخاص المتميز بعجزه عن مواصلة البقاء حتى يتخلى عن (جسده) ويواريه في التراب مع كل ما ملكت يداه من المادة، وينطلق للقاء ربه بأعماله وحدها.

فمرة أخرى: ماذا حدث في الجنة؟

لقد وجد الإنسان كل مطالبه المادية متوفرة بين يديه،

(*) من الفروع الفلسفية التي تبحث عن الحقيقة الأولية للوجود.

Twitter: @alqareah

ووجد المرأة وأنهار الخمر والحب والسلام والدعة. ومنحه الله كل ما يشتهيه الجسد الحي من مظاهر البقاء السعيد، ولكن الشهوة نفسها ـ وهي جزء من الإنسان ـ لم تكن قادرة على الوقوف عند حد. لقد انطلقت ـ رغم كل الوصايا ـ لكي تتذوق الشجرة المحرمة في الجنة بأسرها.

كانت (الشهوة) تشتهي الخلود. وكانت ترتكب بذلك الخطأ النهائي الحاسم الذي يشبه بالضبط رغبة النار في الخلود ـ فالنار تستطيع أن تبقى ما دام ثمة ما بوسعها أن تحرقه. ولكنها عندما تحرق كل شيء لابد أن تنطفئ.

وأنا أتعمد هنا أن أذكر ظاهرة (النار) لكي ألفت النظر إلى أن القرآن لم يستعمل قصة الأفعى التي وردت في التوراة. بل استعمل ظاهرة (الشيطان) الذي قال عن نفسه مبررًا عصيانه: **(خلقته من طين وخلقتني من نار)**(*).

(*) اشارة إلى قوله تعالى في الآية (12) من سورة الأعراف: ﴿ قَالَ مَا مَنَعَكَ أَلَّا تَسْجُدَ إِذْ أَمَرْتُكَ قَالَ أَنَا خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِي مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُ مِن طِينٍ ﴾.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الرابعة عشر 14

.. وقبل ذلك أشار القرآن إلى المراحل الثلاثة التالية:

الأولى: أن الخلق الأصلى تم من عنصر التراب.

الثانية: أن الله علم آدم الأسماء كلها . أى أعطاه منحة المعرفة . قبل أن يهبط إلى الجنة.

الثالثة: أن الأمر الصادر للملائكة بالسجود لآدم لم ينفذ كلية لأن (الشيطان) التزم بعدم الطاعة.

والمرء يستطيع بالطبع أن يصر على حرفية النص، باعتبار أن الواقعة بأسرها قد ذكرت هنا بالتفصيل، وأن الله خلق آدم بصورته كاملة، ودعا الملائكة إلى إبداء الطاعة تجاهه لكي يمنح ظاهرة الخلق فضيلة الطاعة الكلية إلى جانب حقيقة الصدام المتمثل في عنصر (الشيطان).

وهذا الفهم الحرفي للنص يعطي القضية كل أبعادها

Twitter: @alqareah

الدينية، ولكنه لا يتقدم بإجابة معظم الأسئلة التى تستطيع الفلسفة أن تجدها داخل فكرة التجريد الإلهي، فالمرء لا يتصور قط أن الله يحتاج إلى التجربة، ولا يتصور أيضًا أن الشيطان قادر حقًا على إبداء العصيان ما دامت إرادة الله قد صدرت بمنح الطاعة، فالعصيان - داخل إرادة الله - يشبه بالضبط إيجاد النقص في الزيادة، وهو عمل مستحيل عقليًا.

إلى جانب ذلك يبقى هذا السؤال البسيط: لماذا يذكر القرآن أن الشيطان عنصر من النار؟ ولماذا تبدو هذه الحقيقة داخل النص ذات أهمية خاصة، حتى أن (الشيطان) يرفض السجود باعتبار أنه مخلوق من عنصر أعلى من الطين، فنحن نعرف الآن أنه ليس ثمة عنصر أعلى من آخر، وأن الطين والنار لا يمكن المفاضلة بينهما لأنهما في الواقع مجرد وحدات تكمل بعضها؟!

الإجابة - بدون تردد - أن الفهم الحرفي للنص لن يقود أبدًا إلى تفسير هذه النقطة بدون التورط في ظاهرة الأسطورة. وأنا لا أرغب هنا في استكشاف هذه اللعبة، إنني أفضل أكثر أن أترك النص بأسره جانبًا، وأضع هذا السؤال المتناهي البساطة: ما هي النار؟

والعلم لا يملك إجابة محددة على هذا السؤال، فالنار مثل الكهرباء مجرد عنصر موجود في العالم متميز بصفات خاصة .. ونحن نعرف هذه الصفات ولكننا لا نعرف ما هي النار. وإذا كان ذلك يبدو مدهشًا، فإنه في الواقع مجرد مثال آخر عن ضآلة إمكانياتنا المادية.

Twitter: @alqareah

إذن ، ما هي صفات النار الأصلية؟

وأنا هنا لا أريد أن أضع قائمة عشوائية تهدف إلى دراسة عنصر النار لغرض الدراسة وحدها.. إنني أتمنى أن يظل الهدف الرئيسي لهذا الحديث أمام أعيننا على الدوام. ذلك يعني بكلمة أخرى، أن القائمة التالية ليست مجرد حشد لصفات (النار)، بل محاولة واعية لإيجاد الصفات المشتركة بين النار وبين المادة الحية:

والصفة الأولى: أنهما معًا ـ النار والمادة الحية ـ تعتمدان على الاستهلاك المتواصل للمواد الأخرى، وأنهما عاجزتان عن مواصلة (البقاء) بالاعتماد الكلي على جوهرهما وحده.

الصفة الثانية: أنهما معًا ـ النار والمادة الحية ـ منتجتان للطاقة بطريق الاستهلاك، وأن الطاقة فيهما لا تنتج من أجل (الآخرين) بل من أجل النار والمادة الحية ذاتهما.

ونحن نعتقد بالطبع أننا (نستفيد) من النار التي تحرق الخشب في المدفأة، ولكننا ننسى أن النار ستحرق الخشب حتى إذا لم نكن نرغب في ذلك.

الصفة الثالثة: القابلية المطلقة للزيادة، فالنار لا تتوقف عند شجرة يابسة وترفض إحراقها لمجرد أنها أحرقت ما فيه الكفاية. إنها تواصل الاشتعال حتى تنفد كل مصادر الطاقة التى تستطيع أن تصل إليها، وهي عندئذ تنطفئ رغم أنفها. وكذلك الأمر بالنسبة للمادة الحية لأنها أيضًا تحتاج إلى مصادر الطاقة لكي تواصل بقاءها.

Twitter: @alqareah

الصفة الرابعة: أنهما معًا ـ النار والمادة الحية ـ وحدتان عاجزتان كلية عن الخروج من نطاق (الأنانية)، فالنار لا تشتعل من أجل الفلاح الذي أوقدها في مدفأته، إنها تشتعل من أجل (نفسها) فقط، ذلك يعني أن النار لا تعيش من أجل من يمنحها صفة الوجود. إنها ما دامت قد وجدت، فلا شيء تستطيع أن تفعله سوى أن تواصل وجودها بغض النظر عن رغبة الفلاح. وكذلك الأمر بالنسبة (للمادة الحية)، إنها أيضًا لا تعيش من أجل خالقها الأول، بل تعيش من أجل نفسها، وفي هذه النقطة بالذات يحدث الفرق النهائي والحاسم بين النار العمياء التي تستطيع أن تتسرب من المدفأة وتحرق بيت الفلاح بأسره، وبين الإنسان المفتوح العينين الذي يهيئ له عقله العظيم فرصة إدراك الهدف الأصلي من الخلق الأول، فليس ثمة شك أن الفلاح لا يوقد ناره في المدفأة لكي يحرق بيته، ولكن عنصر النار لا يعرف هذه الحقيقة ولا يملك الفرصة لكي يعرفها. أما المادة الحية فإن لديها فرصة الإدراك كاملة.

فما هو الهدف الأصلي من الخلق الأول؟

النص القرآني يشير ببساطة إلى أن الله خلق آدم من تراب، وكلمة التراب لا ترد هنا بمثابة حقيقة علمية فحسب، بل إنها ترد أيضًا بمثابة نقيض لكلمة (النار)، فالشيطان، الذي يشير النص إلى أنه مخلوق من هذا العنصر، هو (العدو الحقيقي) للإنسان المخلوق من عنصر التراب.

فماذا يحدد النص هنا؟

الحقيقة الأولى: أن التراب ـ بعكس النار ـ ليس مادة حية.

Twitter: @alqareah

ولا يحتاج إلى ظاهرة الاستهلاك المتواصل فقط. إنه يستهلك لكي يعطي، ولا يستهلك لكي ينتج الطاقة.

الحقيقة الثانية: أن التراب عنصر تنبت فيه الحياة بمعظم صورها المعروفة لدينا، وأن النار ـ بعكس ذلك ـ عنصر تنعدم فيه الحياة بكل صورها المعروفة لدينا.

الحقيقة الثالثة: أن التراب عنصر للعطاء، وأن النار عنصر للأخذ. وإذا كان المرء يتذكر هنا أن النار تعطي الحياة كثيرًا من الطاقة فأن ذلك في الواقع لم يحدث لأن العطاء في طبيعة النار، بل لأن الإنسان يملك القدرة العقلية على (الاستفادة) من طبيعة الاستهلاك في النار.

عند هذا الحد من المقارنة تتداعى كثير من النقاط البالغة الأهمية:

والنقطة الأولى منها: أن الإنسان الذي خلق من التراب خلق في الواقع من عنصر قادر على منح الحياة، ولكنه ليس قادرًا على إيجاد الحياة بداخله لأنه مجرد وحدة سلبية. فالتراب ليس مادة حية، لأنه إذا صار مادة حية يفقد كل سلبيته مرة واحدة ويشارك النار صفتها الخاصة في الحاجة إلى الاستهلاك من أجل إنتاج الطاقة اللازمة للحياة.

النقطة الثانية: أن خلق الإنسان من التراب يشبه بالضبط إيقاد النار في المدفأة، عمل ليس وراءه ثمة هدف آخر سوى تحقيق منحة (العطاء).

النقطة الثالثة: أن الإنسان الذي خلق من التراب، أي منح

Twitter: @alqareah

هبة الحياة في المادة، ما يزال يشبه بالضبط ظاهرة النار من المدفأة، فالنار إذا بقيت هناك وأعطت خالقها ما يريده منها، فإنها في الواقع تؤدي مهمتها كاملة، ولكنها إذا تسربت من المدفأة وانطلقت لتحرق البيت بأسره، فإنها في الواقع لا تمنح خالقها ما يريده، بل تأخذ هي ما تحتاج إليه.

ذلك يعني أن النار تنال منحة (الحياة) من يد الفلاح، ولكنها تحرق بيته لأنها لا توجد إلاّ من أجل نفسها. وذلك يعني أن الإنسان ـ وهو مادة غير حية مصنوعة من التراب ـ ينال منحة (الحياة) من يد خالقه، ولكنه ـ عندما ينسى ذلك ـ يصبح بالتأكيد مثل عنصر النار لا يوجد من أجل نفسه. أي ـ بالضبط ـ ينحاز التراب إلى جانب الشيطان المصنوع من النار.

وأنا أريد أن أعتذر هنا عن تورطي في مجموعة هذه التعابير الساذجة، فالواقع أن الأمر ليس كله بهذه البساطة، وليست المقارنة العادية بين النار وبين الإنسان مجرد حلقة واحدة من الكلمات الطائشة. إن الأمر ـ في جوهره ـ رؤية شعرية عميقة الأبعاد. ولكنني هنا أستعمل لغة محددة خالية من الظلال، وجامدة إلى حد يؤذي الذوق.. وليس بوسعي أن أجعل مفردات اللغة تعطي أكثر مما لديها. إنني أعتمد في الدرجة الأولى على قدرة الخيال الأولى في تحقيق أبعاد المقارنة. وإذا أتيحت لي الفرصة هنا لكي أنال تلك المنحة منكم، فأنا أعرف على وجه اليقين أنني قد وضعت لتوي بين أيديكم نقطة انطلاق كاملة لإعادة النظر في تفسير النص القرآني الخاص بخلق الإنسان.

Twitter: @alqareah

إن النص ـ كما ورد في القرآن ـ معجزة منقطعة النظير في تاريخ الفكر بأسره، وليس ثمة نص آخر، وليس ثمة فلسفة، وليس ثمة نظرية علمية واحدة، استطاعت أن تحقق هذا الوضوح الفكري بخصوص طبيعة الحياة وطبيعة العقل.

إن كلمة (التراب) وكلمة (النار)، وظاهرة عصيان الشيطان كما وردت في النص القرآني، تحمل بداخلها الحقيقة الحاسمة عن وجود الإنسان في العالم. تلك المعجزة التي إذا أتيحت لنا فرصة إدراك أبعادها، فإننا ـ بكلمة واحدة ـ سنضع قاعدة الفكر الإنساني في اتجاهها الصحيح. وأنا هنا ـ مرة أخرى ـ أحس بالضآلة تجاه ما أقوله، فالواقع أن المرء لا يتوقع أن تصل الحياة الكبرى بهذا اليسر داخل هذا الأسلوب الساذج في التفكير، فوق جريدة يومية(*) تصدر في بلد متواضع الإمكانيات مثل مدينة بنغازى، ولكنني ـ من ناحية أخرى ـ أعرف أيضًا أن القرآن ليس جريدة يومية، وأنه ليس كتابًا ساذجًا. وأن أحدًا غيرنا من أصحاب الفلسفات الكبرى لا يملك كتابًا مثل القرآن. فلو منحنا كلمات الله حقها من العناية الفكرية؟ لو وضعنا اللعبة القديمة جانبًا، وتركنا الوعاء البشري الذي نصبُّ فيه كل أفكارنا. لو قرأنا كلمات الله دون أية قوالب سابقة، أين سيقودنا الله؟!

أنا أعرف الإجابة، لأنها ليست لغزًا محيرًا، وليست أيضًا طلسمًا لا يمكن تفسيره إلاّ داخل المعبد. إنها ـ في الواقع ـ في

(*) إشارة إلى صحيفة (الحقيقة) حيث تنشر حلقات الدراسة.

Twitter: @alqareah

متناول يد كل مخلوق يستطيع حقًا أن يقرأ القرآن، ولكنني أعرف أيضًا أنني لا أملك الحق في دراسة ذلك الكتاب العظيم. إن القرآن يخص رجال الدين، على الأقل طوال الخمسين سنة القادمة.

وإلى أن يحين ذلك الوقت، ليس ثمة بدّ من مواصلة العمل بقمامة الفلسفة.

Twitter: @alqareah

الحلقة الخامسة عشر 15

فى «الحلقة الماضية» كنت أحاول أن أتابع تفاصيل قصة الخلق كما وردت في الكتب المقدسة باعتبارها حادثة رمزية تشد الانتباه إلى ظاهرة التشابه القائم بين النار وبين المادة الحية. وقد أتاحت لي هذه المحاولة فرصة العمل داخل وحدات القصة لإثبات وجهة النظر القائلة إن رمز الشيطان في الكتب المقدسة يستطيع أن يمنح (المادة الحية) صفتها الحاسمة المتمثلة في ظاهرة النار.

فالنار تحمل كل صفات (الشيطان) في داخلها. إنها ـ مثله ـ لا تستطيع أن تمنح نفسها للحياة، بل لابد أن يوقدها المرء بيديه أو تتسبب الصاعقة في إيقادها، ولكنها ـ ما دامت قد منحت فرصة الحياة ـ فهي ـ مثل الشيطان أيضًا ـ لا توجد من أجل خالقها، بل من أجل نفسها فقط.

هنا تبدو ظاهرة (عصيان الشيطان) طبيعة بداخله. ذلك

Twitter: @alqareah

يعني أن الشيطان لم يرفض إرادة الله، بل قام بتنفيذها على أكمل وجه، لأن الله خلقه بطبيعة النار التي لا تعيش إلاّ من أجل نفسها. وهذه النقطة تحتاج إلى كثير من النقاش:

فالبحر لا يعصى إرادة الله لأنه عاجز عن إيواء الإنسان بداخله، أو لأنه يفتقر إلى صلادة التماسك بين جزئياته. إنه ينفذ تلك الإرادة على أكمل وجه عن طريق احتفاظه بطبيعته.

والنار لا تعصى إرادة الله لأنها تحرق بيت الفلاح، بل إنها تنفذ تلك الإرادة على أكمل وجه عندما تحرق أي شيء تجده في طريقها. وكذلك بقية الوحدات الموجودة في العالم بما في ذلك الشيطان أيضًا. فنحن نرتكب خطأ لغويًا عندما نتصور أن كلمة (العصيان) التي وصفت ما قام به الشيطان تجاه الله تعني بالضبط ما تعنيه كلمة العصيان في قاموسنا. إن ذلك مجرد (فهم) ناجم عن قالب فكري معين. وليس ثمة شيء في العالم يستطيع أن يرفض إرادة الله دون أن يسقط في فراغ (اللاشيء) المستحيل عقليًا. ولكن كلمة (العصيان) تعني فكرة مختلفة كلية، فالخط المستقيم المتجه شرقًا يقف نقيضًا لأي خط مستقيم يتجه غربًا ويحقق ضده قوة الجذب ويغير اتجاهه لكي يجذبه معه. وهو ـ في الواقع ـ يعمل ضد طبيعة ذلك الخط، أي يحقق تجاهه ظاهرة العصيان كاملة، ولكنه لا يخرج قط عن نطاق القانون العام، فالخطوط المستقيمة ـ مهما كانت متناقضة الاتجاه ـ لابد أن تلتقي عند نقطة واحدة حول الدائرة.

وأنا أستطيع أن أجد أمثلة أكثر بساطة:

Twitter: @alqareah

فخلايا السرطان تنمو بموجب قانون يختلف كثيراً عن القانون العام للخلايا السليمة، ورغم أنها تنمو معها داخل جسد واحد فنحن نعرف أن خلايا السرطان تعمل بدأب لتدمير الخلايا الأخرى، أي أنها تعيش بموجب قانون مضاد كلية للحياة، ولكن ذلك لا يعني أنها تعيش بدون قانون، والنتيجة في نهاية المطاف أن تتولد قوة الجذب بين هذين القانونين ـ كما تتولد بين أي خطين متناقضين ـ وتبدو ظاهرة العصيان كاملة، فالسرطان يرفض قانون الحياة، وقانون الحياة يرفض السرطان. وذلك يحدث داخل جسد في لحظة واحدة. ولكن نقطة الالتقاء تبدأ فورًا على حافة الموت أو حافة الشفاء كما تلتقي الخطوط كلها حول الدائرة.

والمرء يرى هنا بوضوح أن السرطان لا يقوم بعصيان قانون الحياة، بل بطاعة قانونه الخاص.. كما يحدث عندما تختنق السمكة خارج الماء، فالسمكة لا تفعل ذلك لأنها لا تريد أن تعيش، بل لأنها عاشت دائمًا طبقًا لقانون مختلف لا يضمن الحياة خارج الماء.

وذلك ما حدث في بداية الخلق.

فالشيطان لم يرفض إرادة الله، بل أبدى تجاهها طاعة كلية خالية من أى شيء آخر سوى الطاعة وحدها. ولكن طبيعة قانونه كانت تقف نقيضًا لطبيعة التراب، وتتجه في اتجاه معاكس لها، وتحقق معها صراعًا كاملاً لا يمكن إنهاؤه إلاّ بالالتقاء في نهاية المطاف عند نقطة الأصل حول الدائرة.

والكتب المقدسة تشير ببساطة إلى أن الشيطان لم يخلق

Twitter: @alqareah

نفسه، ولكن الله خلقه من عنصر النار. ذلك يعني أنه منحه الوجود طبقًا لقانون مختلف كلية عن قانون الخلق من التراب. والشيطان لا يعصى الله عندما يعيش طبقًا لقانونه الخاص. إنه في الواقع لا يبدي تجاهه سوى الطاعة الكلية، ولكن ذلك بالضبط ما يجعله يقف نقيضًا لأي قانون آخر كما تقف الزيادة نقيضًا للنقصان.

فماذا حدث بعد ذلك؟

الكتب المقدسة تقول إن آدم هبط إلى الجنة وتلقى مجموعة من الأوامر تهدف كلها إلى منحه السعادة القصوى في تذوق وجوده، ما عدا أمر واحد: (لا تأكل من الشجرة المحرمة). فالله منحه حق الحياة في الجنة وطلب منه أن (ينعم) مع زوجته بهذا الوجود المتناهي اللذة ويتذوق أحلى الفاكهة وأطيب الشراب ويخلد في ظل الحب. وهذه الأوامر كلها تبدو متناسقة مع إرادة (آدم) نفسه، فالمرء لا يستطيع أن يتمنى وجودًا أكثر أصالة من هذا الوجود الحافل بالنعيم، ولكن ذلك بالضبط ما يجعل (إرادة) آدم معطلة. فهو لن يعرف ما إذا كان يطيع هذه الأوامر لأنها صدرت إليه أم لأنها متناسقة مع إرادته الخاصة.

هنا يأتي الأمر الوحيد الذي يستطيع أن يحدد الحقيقة النهائية: (لا تأكل من الشجرة المحرمة). هنا يستطيع آدم أن يختبر قدرته على الطاعة، فإرادته الخاصة ـ ما دامت مجرد إرادة تابعة منه ـ لا تمنعه من تذوق ثمار الشجرة المحرمة. إنه ليس ثمة ما يمنعه في الواقع سوى الرغبة الخالصة في إبداء الطاعة تجاه أمر صادر من الله.

Twitter: @alqareah

لذلك فإن الشجرة المحرمة كانت في الجنة، أي في متناول يد الإنسان، وكانت كل الظروف مفتوحة أمامه لمواجهة الاختبار مع نفسه، وكان المسرح معدًا بعدالة كاملة. فهنا يقف الإنسان مزودًا بالعقل والإرادة أمام شجرة عادية لا يميزها شيء عن أي شجرة أخرى في الجنة سوى أمر صادر من الله بوجوب الطاعة الكلية.

هنا يتقرر بوضوح، ولأول مرة وآخر مرة أيضًا، ما إذا كان الإنسان سيظل (ذائبًا) كلية في إرادته لكي تتحد مع إرادة الله، أم أنه سيختار الطريق الآخر ويبحث لنفسه عن اتجاه خاص.

هنا يضع الإنسان قاعدة السير طوال الطرق الطويلة القادمة. هل يحتفظ بيده في يد الله ويدمج إرادته في الإرادة الكلية، أم يقرر أن يعرف حدوده على وجه اليقين؟

هنا يسأل الإنسان نفسه هذا السؤال القاتل: (هل أنا أطيع الله لأنني أريد أم لأنه يريد؟)، والإجابة مستحيلة بإبداء الطاعة تجاه كل الأوامر السابقة، فالبقاء في الجنة ليس بالضرورة ناجمًا عن الرغبة في طاعة الله، لأن آدم أيضًا يريد أن يبقى في الجنة، وكذلك التنعم بالوجود الخالد والحب واللذة. إن كل شيء هنا يشمل الأمر الصادر بإبداء الطاعة والرغبة في إبداء الطاعة أيضًا، ما عدا الأكل من الشجرة المحرمة، فهذا أمر يمكن عصيانه أو طاعته. إنه مجرد أمر خارج عن رغبة آدم نفسه، يستطيع أن يقبله كما هو، ويستطيع أن يرفضه، لأن الأكل من الشجرة المحرمة لا يتناقض مع رغبته في البقاء السعيد.

Twitter: @alqareah

هنا تسأل النار نفسها: (هل أنا أحرق الخشب أم أن الفلاح يريدني أن أحرقه؟)، وليس ثمة إجابة على ذلك السؤال سوى أن تتسرب النار من المدفأة وتمارس إرادتها في إحراق الخشب، بغض النظر عن رغبة الفلاح، حتى ولو تسبب ذلك في إحراق البيت بأسره.

وهنا أيضًا سأل آدم نفسه سؤاله القاتل ووجد له إجابته القاتلة لكي يكتشف مفتوح العينين أنه لم يخرق إرادة الله عندما أكل من الشجرة المحرمة، بل خرق إرادته الخاصة وحدها. لقد فقد مكانه في الجنة، وهو آخر ما كان يريده على أي حال.

عند هذه النقطة أنا أزمع أن ألفت النظر إلى أن الكتب المقدسة تشير بوضوح إلى أن (الأكل من الشجرة المحرمة) تم بوصية من الشيطان. والمرء يستطيع بالطبع أن يتمسك بحرفية النص رغم أن ذلك لن يفسر قط كيف وصل الشيطان نفسه إلى الجنة، ولكنني هنا لا أعمل في تفسير أي كتاب مقدس، ولا أملك نصًا حرفيًا ألتزم به داخل هذه الدراسة. إنني أعمل بقمامة الفلسفة التي يبدو أنها قادرة هنا على الإشارة بوضوح إلى أن (خطيئة آدم) قد نجمت في الواقع عن الصفة النهائية والحاسمة التي تتصف بها النار والمادة الحية معًا. لقد أراد آدم أن يحدد إرادته ويمنحها حجمًا متميزًا عن الإرادة الأصلية، كما تقرر النار أن تحرق البيت بأسره لكي تثبت أنها لا تحرق بمشيئة الفلاح وحده.

وقد حقق آدم هدفه بالضبط، ولكن خروجه من الجنة أثبت أنه لم يحقق إرادته، لأن ذلك مستحيل داخل إرادة الله، وقد

Twitter: @alqareah

هبط آدم على الأرض، أي على السطح الصلد الذي تستطيع أن تقف عند أية نقطة منه وتقول لنفسك: (أنا سوف أمشي في هذا الاتجاه وليس في اتجاه آخر).

وخرج آدم من البحر، حيث لم يكن بوسعه أن يفعل شيئًا سوى أن يطفو حيث يحمله التيار العظيم كما تحمل إرادة الله كل الأشياء. لقد وصل آدم إلى الأرض الصلدة وغرس رجليه في التراب، وأصبح بوسعه أن يختار المشي في أي اتجاه ثم يعود إلى الله في نهاية المطاف كما تعود كل الخطوط المستقيمة وغير المستقيمة إلى نقطة البداية على سطح الدائرة.

هذا كله تمثل في دورة الحياة.

وهذا كله ما يزال يتمثل في الطفل الذي يبدأ جزءًا من والديه وإرادة ذائبة في إرادتهما، حتى إذا منحاه الحياة، وأعطياه اللحم والعظام، تكشّف فورًا عن إرادة منفصلة قائمة بذاتها، تختار موضع قدميها على الأرض الصلدة، وتختار اتجاهها إلى آخر يوم من وجودها.

وآدم فعل ذلك بالضبط.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة السادسة عشر 16

في البداية كان آدم جزءًا من الجنة.

كان مثل بقية الأشجار، مجرد وحدة قائمة داخل القانون العام، وكان لا يعرف الخطيئة، ولا يعرف ماذا تعني كلمة (أنا)، ولا يعرف أيضًا أن العالم يستطيع أن يضم مكانًا آخر غير الجنة، ثم ارتكب آدم (الخطيئة) وهبط على الأرض، ووضع قدميه فوق السطح الصلد وأصبح بوسعه أن يختار (اتجاهه) كما يشاء متحررًا من اتجاه التيار العام.

وقد أدرك آدم إذ ذاك ماذا تعني كلمة (أنا)، وأدرك أيضًا أن المرء عندما ينطق تلك الكلمة يضع فوق كتفه على الفور مسؤولية الحياة. هذه الحادثة التي انتهت بانفصال (آدم) عن الأصل ما تزال تتمثل كل يوم في ظاهرة (الميلاد). فالجنين يبدأ لا شيء.. مجرد (كينونة) ذائبة في العالم. مجرد مجموعة من الذرات بلا حدود تكمن في الطعام الذي يناله والده وتناله

Twitter: @alqareah

والدته، وتكمن في الهواء أيضًا، وفي الحب والتقارب، وكل خلية حية في جسدي والديه، والجنين - في هذه المرحلة - لا يعرف ماذا تعني كلمة (أنا)، ولا يعرف أيضًا أن العالم يضم شيئًا غير هذا الكل المسطح. ثم يتكون الجنين ذات يوم وتنبثق الحياة في مياه المشيمة(*) كما انبثقت ذات مرة في مياه البحر، ويمتد حبل (الصرة) من جسد الأم لكي يمده بالغذاء والهواء، ويعيش الطفل مرحلة (الجنة) داخل مرحلة (الحياة) - كما عاشها آدم أيضًا - ثم يحين الوقت ويرفع الجنين يده لكي يدق باب (الوجود المنفصل) كما ارتفعت يد آدم ذات مرة لكي تتذوق شجرة الحياة. وأول ما يحدث أن تقطع الأم (حبل الصرة)، أي تمنح طفلها وجوده الخاص كما منحه الله لآدم عندما أخرجه من الجنة، ثم تبدأ لحظة الميلاد داخل الحياة الحقيقية. ويكتشف الطفل أنه يستطيع أن ينام في المهد، فيما تجلس أمه في الغرفة الأخرى. إنه لم يعد يتنقل بداخلها. لم يعد جزءًا منها يتحرك، ويموت متى تموت. إنه الآن وحدة (منفصلة) بذاتها تمارس نوعًا من الإرادة المنفصلة أيضًا، وخلال السنوات الثماني عشرة القادمة لا يفعل الطفل شيئًا في الواقع سوى أن يعد لنفسه المسرح المنفصل الذي سيمارس عليه إرادته. فإذا حان الوقت رفع الطفل صوته لكي ينقل لوالديه الهدف النهائي لظاهرة النمو بأسره. إنه سيقول لهما (أنا بلغت سن الرشد). (أنا أريد أن أسير في هذا الاتجاه وليس في اتجاه آخر). (أنا

(*) هي، «الطبقة البرانية للغشاء الذي يكون فيه الجنين في البطن، ويخرج معه عند الولادة» انظر، المعجم الوجيز، مجمع اللغة العربية، القاهرة - طبع، المركز العربي للثقافة والعلوم. بيروت (بدون تاريخ).

Twitter: @alqareah

وحدة منفصلة عنكما). وبذلك يتحقق الهدف النهائي للمخلوق الذي بدأ ذات يوم في مياه المشيمة مرتبطًا بحبل الصرة. وتبدأ الحياة مسيرتها الجديدة على الأرض محملة بالمسؤولية.

لقد هبط (آدم) الجديد على الأرض ووضع قدميه على السطح الصلد وأصبح بوسعه أن يختار اتجاهه متحررًا من اتجاه والديه. إنه يملك الآن كل ما يحتاجه لتحقيق (انفصاله) الكلي، ويملك عقلاً لا يمكن تسييره بأي جسد آخر. ويملك جسدًا لا يملك تسييره بأي جسد آخر، ويملك بصمات أصابع مختلفة، عواطف مختلفة، وفهم مختلف عن أي شخص آخر جاء إلى هذا العالم أو سيجيء إليه، وهو الآن يتحمل مسؤولية وجوده طبقًا لكل الديانات وكل القوانين أيضًا. ويقف أمام نفسه، أمام المجتمع، وأمام الله مسؤولاً عن كل تصرفاته.

هنا تتحقق ظاهرة (الأنا) بوضوح صاعق، ويكتشف (آدم) في تلك اللحظة بالذات أنه كان يجري وراء أسطورة مجنونة. وأن (الانفصال عن العالم) مجرد وهم من الداخل. فآدم وحدة قائمة بذاتها، ولكن (الماء) الذي يحتاجه آدم لكي يعيش، مشاع بين جميع وحدات العالم.

وآدم وحدة قائمة بذاتها، ولكن (الهواء الذي يحتاجه آدم لكي يعيش مشاع بين جميع وحدات العالم)، فأين (الانفصال)؟ أين (الأنا) التى انطلق وراءها منذ أن انبثقت بداخله الحياة في صرة من مياه البحر. أين الوهم المحزن الذي أغراه ذات مرة أن يمد يده إلى الشجرة المحرمة لكي يثبت أنه (وجود منفصل وإرادة منفصلة)؟

Twitter: @alqareah

هنا، في هذه النقطة تفترق الطريق إلى شعبتين، ويختار آدم قراره النهائي، فإما أن يغمض عينيه عن خيبة الأمل ويواصل الدفاع عن (الأنا) إلى آخر لحظة بامتلاك ما لا يملكه الآخرون، وبإخضاع الحياة (لإرادة الجسد المنفصل)، أو يترك (الأنا) جانبًا، ويعود إلى (عالم الكل) عبر صرخة الإنسان الشهيرة ﴿ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴾(*).

هنا، تفترق الطريق إلى شعبتين، فإما أن تواصل المادة الحية العمل لإثبات ذاتيتها وانفصالها إلى آخر لحظة مزمعة أن تنال ما تريده هي، وما تحتاج إليه هي، أو تسلّم المادة الحية نفسها لله.

هنا، تفترق الطريق إلى شعبتين: فإما أن تعمل النار لإثبات صفتها الأولى في الأستهلاك من أجل إنتاج الطاقة بداخلها، أو تعمل لإثبات صفتها الأولى في الاستهلاك من أجل إنتاج الطاقة للآخرين.

هنا، تتقرر النتائج: هل النار من أجل النار، أم النار من أجل الفلاح.

هل (أنا) من أجل (أنا)، أم (أنا) من أجل (الكل الأصلي). هنا قال الله لآدم على مفترق الطرق: ﴿ فَتَلَقَّىٰ آدَمُ مِن رَّبِّهِ كَلِمَاتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ إِنَّهُ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (٣٧) قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ

(*) من الآية (156). سورة البقرة.

Twitter: @alqareah

كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾(*).

وانتهت بذلك قصة الخلق كلها، وبدأت مسيرة الحياة على شعبتين، فالنار التي تحرق من أجل النار لابد أن تواصل ذلك إلى الأبد، والنار التى تحرق من أجل العطاء لابد أن تواصل ذلك إلى الأبد أيضًا.

والطريق مقسم إلى شعبتين، والناس الذين يمرون منها: ﴿ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾(**)، فالذي ينطلق لتحقيق (الأنا) لابد أن يفعل ذلك على حساب الآخرين، والذى ينطلق لتحقيق (العودة إلى الأصل) لابد أن يفعل ذلك على حساب (الأنا) ولكن المسيرة ليست لا نهائية. إنها مجرد ﴿ مَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾(***). ثم يحدث (الموت) وتنبلج الحقيقة الكبرى عبر مسيرة الشعبتين، ويجد المرء السؤال القديم جاهزًا بين يديه: (حسنًا. ماذا سيحدث؟). ولكن الفلسفة لا تعرف ماذا سيحدث. ليس بالضبط على أية حال، فالموت باب موصد لا يمكن اختراقه إلاّ بالموت نفسه، وهو لا يتيح لنا فرصة لعبوره بالمنطق أو الخيال، ولا يقول لنا شيئًا من الداخل بما في ذلك الإجابة العادية عما إذا كان أحد ما سيذهب إلى الجحيم أم سيذهب إلى الجنة.

إن الأمر كله خارج عن نطاق المعرفة، وليس من مهمة أحد

(*) الآيتان (38) - (39). سورة البقرة.

(**) من الآية (36). سورة البقرة: ﴿ وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ﴾.

(***) من الآية (36). سورة البقرة: ﴿ وَلَكُمْ فِي الأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴾.

Twitter: @alqareah

على الإطلاق أن يتورط في التنجيم لكي يقول لنا إن إحدى الشعبتين ستذهب إلى الجنة وأن الشعبة الأخرى ستسقط في قاع جهنم. ذلك في الواقع خروج صريح عن نطاق الفلسفة يتجاوز كل ما لدينا من المعرفة.

إننا نعرف أن الطريق ينقسم داخل الحياة نفسها إلى شعبتين، ونعرف أن مجموعة من الناس تواصل إثبات ذاتيتها عن طريق محاولة التفوق بالمال أو بالبنين أو الجاه أو السلطة أو كل ذلك مرة واحدة. ونعرف أيضًا أن مجموعة أخرى تقطع مسيرة الحياة متخلية عن ذاتيتها، منطلقة لإدماج (الأنا في الكل)، معلنة عبر كل خطوة أنها ليست وحدة قائمة بذاتها وأنها لا تعيش الحياة من أجل الحياة، وأنها لله وإليه تعود. ذلك كله واقع في نطاق معرفتنا، ولكنه لا يكفى لكى نتنبأ بمصير المجموعة النهائي، لأن الموت باب موصد أمامنا حتى نموت بأنفسنا. ولأن الفلسفة لا تعتمد على وسائل التنجيم، فإننا لابد أن نترك ذلك إذا كنا نؤمن بوجوده، أما إذا كنا نعتقد أن الحياة كلها مجرد صدفة فنحن لابد أن نقف هنا لكي نعترف لأنفسنا بأن حدوث الموت، ما دام لا يعني الذهاب إلى الجنة أو إلى الجحيم، فإنه لابد أن يعني بالتأكيد أن الناس الذين ينطلقون طوال حياتهم لتحقيق ذاتية (الأنا) هم في الواقع الذين تلحق بهم الخسارة لأنهم وحدهم الذين يفقدون شيئًا ما بالموت. فأنت ما دامت (الأنا) هي كل ما تملكه، فإن الموت في الواقع يسلبك (كل شيء). هذا منطق الحادثة، فالموت لا يقول للفلسفة إن: (الإنسان المؤمن بالله) يذهب إلى الجنة، ولكنه يقول لها بوضوح متناه وبطريقة خالية من العوج، إن الإنسان

Twitter: @alqareah

الذي لا يؤمن إلاّ بنفسه، يؤمن في الواقع بالعبث، ويعيش حياته عبثًا، ويجعله الموت مجرد (جثة) متعفنة لا تستحق شيئًا سوى أن توارى في التراب بأسرع وقت ممكن.

فهل الموت نهاية كل حي؟

هل ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ ﴾(*)؟

هل ثمة مخلوق واحد يختار طريق (النار للنار) دون أن ينطفئ في نهاية المطاف؟

هل (الأنا) منطق الحياة؟

إننى لا أضع هذه الأسئلة لكي أبحث لها عن إجابات. إن كل سؤال فيها إجابة قائمة بذاتها.

(*) من الآية (185). سورة آل عمران.

Twitter: @alqareah

الحلقة السابعة عشر 17

خروج آدم من الجنة ـ إذا لم يكن خروجًا تاريخيًا محضًا ـ فإنه بالتأكيد لابد أن يبدو بمثابة رمز واضح الأبعاد لظاهرة اكتشاف (الأنا) داخل الإنسان، فالقصة تقع بتناسق ملفت للنظر بين حادثة الخروج الناجمة عن ارتكاب (الخطيئة) وبين معنى الخطيئة ذاتها. والدليل الحاسم في هذا الشأن أن الكتب المقدسة ـ في جميع الثقافات وجميع العصور ـ تربط الخطيئة بظاهرة (الأنا) ربطًا مباشرًا خاليًا خلوًا تامًا من الشذوذ.

ذلك يعني أن (الأنا) هي المصدر الوحيد لمعنى (السيئة). فالكتب المقدسة لا تقسم (الفعل) إلى حسنة مطلقة أو سيئة مطلقة، بل تربطه دائمًا بمصدره. فإذا صدر الفعل عن (الأنا) وحدها فإن الكتب المقدسة تدعوه سيئة، وإذا صدر الفعل عن (غير الأنا) فإن الكتب المقدسة تدعوه حسنة. وهذه الحقيقة الملفتة للنظر تتجلى بوضوح في جميع الوصايا والشعائر

Twitter: @alqareah

والفرائض التي تتبناها الكتب المقدسة، فليس ثمة فريضة واحدة يطالبنا بها (الله) من أجل (الأنا). بل إن كل الفرائض تتجه بوضوح لتعليم الإنسان بأنه لا يعيش من أجل نفسه.

فالصلاة تقام (لرب العالمين. مالك يوم الدين)(*) أي للكل المضاد للأنا. وكذلك الصيام والزكاة والحج، أما الشهادة التي تقف على رأس الفرائض بالتأكيد القائل (لا إله إلاّ الله) فإنها - في الواقع - اعتراف واضح بأن (الأنا) ليست هي الإله، أي ليست هدف الحياة، وأن أول درجة في السلّم هي بالضبط إلغاء (الأنا) داخل الكل.

هذه الحقيقة يمكن إعادة صياغتها على النحو التالي:

عندما مدّ آدم يده لكي يأكل من الشجرة المحرمة كان يلبي رغبة خاصة صدرت من ذاته - أي من (الأنا) - وليست من (الكل) الذي أمره بعدم الأكل من الشجرة المحرمة، وآدم - في تلك اللحظة - كان يخالف الأصل القائل بأنه (لا إله إلاّ الله) ويضع بدله نصًا آخر يقول: (الأنا هي التي تستحق الطاعة، أي أنها هي الله). وقد فشل آدم بذلك في إلغاء ذاتيته، وسقط فريسة الأنانية التي قادته إلى الشقاء.

لذا فإن العقاب يجيء أيضًا من نوع الذنب. فآدم - الذي اعتقد أن (الأنا) هي الله - يهبط على الأرض لكي يكتشف أن الأنا (تجوع وتعرى)(**) وأنها تولد لكي تموت، فالموت يبدأ بالضبط في اللحظة التي تبدأ فيها الحياة داخل (الأنا)، أما خارج الحياة فليس ثمة موت على الإطلاق.

(*) إشارة إلى سورة الفاتحة.

(**) إشارة إلى الآية (118). سورة طه: ﴿ إنَّ لك ألاَّ تجوع فيها ولا تعرى ﴾.

Twitter: @alqareah

أما الخلاص فإنه يأتي أيضًا من نوع الذنب، لأن آدم مطالب بإقامة الصلاة، أي بنسيان (الأنا) والسجود على وجهه أمام (الكل)، ومطالب بالصيام، أي نسيان (الأنا) من أجل طاعة الكل، ومطالب بالزكاة، أي حرمان (الأنا) من أجل طاعة الكل، ومطالب قبل ذلك كله بأن يحس في أعمق نقطة من قلبه بأنه (لا إله إلاّ الله) . أي بأن (الأنا) في خدمة (الكل).

هذا طريق الخلاص بالنسبة للكتب المقدسة، أما طريق الشقاء فانه يأتي أيضًا من نوع الذنب، لأن آدم يرتكب خطيئة جديدة كلما فعل شيئًا من أجل (الأنا). فالسرقة سيئة إذا صدرت لخدمة أنانيته، وكذلك الكذب والزنا والقتل والنفاق والغدر، وكل ما يستطيع آدم أن يفعله من أجل (الأنا) وحدها يبدو خطيئة، أو . في أحسن الظروف . لا يساعد على خلاصه، أي لا يبدو حسنة على الإطلاق.

فالكتب المقدسة لا تعترف بحسنة واحدة يمكن أن تصدر من (الأنا) المجردة، إنك تستطيع بالطبع أن تجمع لنفسك الثروة لأن ذلك ليس خطيئة ما دام قد تم بالطرق المشروعة، ولكنه أيضًا ليس حسنة تساعد على خلاصك إلاّ إذا وضعت تلك الثروة في خدمة غير (الأنا).

وتستطيع أيضًا أن تأكل ما تشاء وتلبس وتحيط نفسك بكل مظاهر النعمة والترف لأن ذلك ليس خطيئة ما دام يتم داخل الإطار المعترف به، ولكنه . طبقًا لكل الكتب المقدسة . ليس حسنة تساعد على خلاصك بأي حال. إن المقياس الوحيد

Twitter: @alqareah

للخير والشر، أو الحسنة والسيئة ـ بالنسبة للكتب المقدسة ـ هو مقدار التجرد من (الأنا) في الفعل والعمل.

فأنت لا ترتكب خطيئة لمجرد أنك رجل فاحش الثراء. إن ذلك يتوقف دائمًا على مدى تجردك من (الأنا) وحدها. ولكنك ترتكب خطيئة عندما تقترف إثم الزنا، لأن ذلك لا يمكن أن يتم إلاّ بسقوط فريسة (أناك)، وكذلك الأمر بالنسبة لرذيلة الكذب والسرقة والقتل والنفاق والغدر وبقية الأفعال التي تدعوها الكتب المقدسة ـ جميع الكتب المقدسة ـ خطايا توجب العقاب.

فالفرق الحاسم يكمن ببساطة في هذا السؤال: (من أجل من أنت تعيش؟!).

والمرء لا يحتاج إلى إعلان الإجابة لأحد، لأن المظهر الخارجي لا يجدى، فالأعمال بالنيات وحدها، والله يؤاخذك بما كسب قلبك، وليس بما يلهج به لسانك. وأنت تستطيع أن تقول ما تشاء، وتزكّي نفسك كما تشاء دون أن يقودك ذلك إلى أعلى أو إلى أسفل بمقدار عقلة إصبعك.

فالطريق الوحيد يكمن في الداخل، وأنت لا تشبع بمجرد أن تذكر اسم الطعام، إنك لابد أن تنال ذلك الطعام بداخلك، وإذا لم تنله فلابد أن تموت بالجوع، وكذلك الأمر بالنسبة لظاهرة الإيمان، فأنت لا تؤمن بمجرد أن تذكر اسم الله، إنك لابد أن تحمل ذلك الإيمان إلى الداخل وتتركه يقرر الاتجاه الحاسم في نهاية المطاف، فإما أن يقودك خارج (الأنا) أو لا يقودك. إن أحدًا لا يستطيع أن يعرف الحقيقة سواك. فإذا فشلت في

Twitter: @alqareah

الحصول على الطعام فإنك تموت بالجوع، وإذا فشلت في تحقيق ظاهرة الإيمان فإنك أيضًا تموت بشيء آخر أكثر إثارة للرعب من الجوع. إنك تسقط داخل (الأنا) التي تعزلك عن العالم كما يعزلك الموت نفسه في نهاية المطاف، وتجعلك تبدو في داخلك مثل جزيرة مقطوعة داخل الفراغ اللامتناهي. فالأنا لا شيء قبل مولدك، والأنا لا شيء بعد موتك. إنك في الواقع لا تعيش سوى الفترة المفجعة القصر المليئة بالكدح من أجل كسرة الخبز، وتنهض من نومك كل يوم لكي تمشي خطوة أخرى في اتجاه الموت رغم إرادتك. فإذا حانت الساعة، فليس ثمة ما بوسعك أن تفعله سوى أن تضع الدمية التي آمنت بها طوال حياتك جانبًا وتغمض عينيك لآخر مرة رغم كل دواعي الرفض.

ولأن ذلك عمل مفجع متناهي القبح، فأنت تحتاج إلى أن (تتجاهله) كلية، وتجلس فوق جزيرتك المعزولة مزمعًا أن تخدع نفسك بنسيان الموت والميلاد، وتجمع في مخزنك كل ما تستطيع أن تجده من اللعب المبهجة التي تساعدك على (احتمال) الانتظار، وتصبح رجلاً فاحش الثراء يمتلك العبيد والخدم والسلطة والجاه، وينعم بأشهر الصيف في جزر هاواي وأشهر الشتاء في أسوان، ويتشقلب بين الجواري ويتسكع بطائرته الخاصة في سماوات هونج كونج ويراهن دائمًا على الحصان الفائز.

ثم يدق الموت بابك ويصل إليك حتى إذا كنت في برج

Twitter: @alqareah

مشيد على سطح القمر(*)، لأن الموت لا يأتيك من الخارج. إنه يولد بداخلك يوم مولدك بالضبط وتحمله في (الأنا) المحزنة التي ظللت تواصل الهرب بها كما يهرب اللص بقنبلة زمنية على شكل جوهرة، وما دامت القنبلة لابد أن تنفجر في نهاية المطاف، فإن اللص لابد أن يموت محملاً بخيبة الأمل في غنيمته الخادعة.

هذه (الأنا) هي التي تجعلك تحس بخيبة الأمل في الموت. هي التي تجعلك تخافه إلى حد الشلل، وتجعل حياتك مجرد هروب متواصل من (عدو) تحمله في داخلك. وأنت هنا لا تبدو مضحكًا فحسب، إنك أيضًا تبدو معرضًا للخسارة مثل (رجل يحمل صحنًا من الرماد في وجه الريح)، أو كما قال القرآن: ﴿ مَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ أَعْمَالُهُمْ كَرَمَادٍ اشْتَدَّتْ بِهِ الرِّيحُ فِي يَوْمٍ عَاصِفٍ لاَّ يَقْدِرُونَ مِمَّا كَسَبُوا عَلَىٰ شَيْءٍ ذَٰلِكَ هُوَ الضَّلالُ الْبَعِيدُ ﴾(**).

أليس كذلك؟

أليس منتهى الحمق أن يحمل المرء صحنًا من الرماد في وجه الريح، أو يحمل (الأنا) في وجه الموت، ويذهب من هنا إلى عالم لا يعرف عنه شيئًا دون أن يتزود بغير رغبات (الأنا) من النقود والنساء والجاه والخرق الملونة؟ أليست (الأنا) بعد

(*) إشارة إلى الآية (78). سورة النساء: ﴿ أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ﴾.

(**) الآية (18). سورة إبراهيم.

Twitter: @alqareah

بضعة أشهر من الموت مجرد رماد؟ مجرد عظام بالية تذوب فى التراب ويحرقها الزمن المتطاول حتى يجعلها مجرد رماد؟ هل تحمل أنت ذلك وحده إلى عالم لا تعرف عنه شيئًا؟.

المرء يهز رأسه ويقول: أجل.. أنا أحمل صحنًا من الرماد وأواجه عالم الموت، لأني أعرف أنه لا شيء وراء الموت. والمرء - عندما يقول ذلك - لا يتجاهل فحسب أنه يفتقر إلى الدليل، بل يتجاهل أيضًا أن هذه الإجابة بالضبط تصدر عن (الأنا) وحدها.

والفخ البالغ الإحكام أن المعرفة تثبت يومًا بعد يوم أن (الأنا) تخطئ في الإجابة دائمًا حتى يجعلها العلم تؤمن بما لا تعرف عنه شيئًا، فالأثير (لا شيء) بالنسبة للأنا حتى يجعلها العلم تحسه بحواسها، وكذلك موجات الضوء والكهرباء والجاذبية والطاقة، وبقية الوحدات التي ظلت (لا شيء) إلى أن منحها العلم الدليل المادي.

ولو كان بوسع العلم أن يمنح فكرة (الموت) دليلاً ماديًا لبدا الأمر قابلاً للفهم، ولكن المرء لا يستطيع أن ينطلق في هذا الاتجاه خطوة واحدة دون أن يصطدم بالجدار.

إن المشي لابد أن يتم في اتجاه (الحياة) وحدها.. ويبدأ على الفور بهذا السؤال المتناهي التعقيد: (كيف تنتهي الحياة في المادة؟).

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الثامنة عشر 18

(كيف تنتهي الحياة في المادة؟)..

الإجابة تستطيع أن تحل جميع الألغاز مرة واحدة، لو كان بوسعنا أن نجد إجابة، ولكن كيف يحقق المرء هذه المعجزة ما دام لا يعرف أصلاً ما هي الحياة، أو ما هي المادة؟..

إننا لا نملك فرصة للعبور خلال هذا الجدار، فالموت لا يخضع للدراسة بصورة حقيقية، ولا يبدو أيضًا بمثابة جدار، إنه مجرد (شكل آخر) للعالم، أعني - مثل الحلم - مجرد صورة مختلفة عن الأصل بطريقة ما. والحل الوحيد أن نستدير لإعادة صيغة السؤال في اتجاه آخر، محاولين (تحسس) الإجابة داخل الإطار المعروف لنا باسم (العضو الحي). فكيف تحدث ظاهرة (الموت) في العضو الحي؟ أو - بكلمة أخرى - كيف: (يتحلل العضو الحي بعد الموت ولا يتحلل داخل الحياة أيضًا؟).

Twitter: @alqareah

الإجابة الواضحة أننا بطريق (الأكل والشرب والتنفس)، أي بطريق (الميتابوليزم) أو التغيير، نستطيع أن نمنع العضو الحي من التحلل في الحيوان والنبات معًا. وذلك يعني في الواقع أن (التغيير) هو الذي يحفظ العضو الحي من التحلل، ولكن السؤال المدهش هو (تغيير ماذا؟).

الإجابة القائلة بأن التغيير يحدث في شكل المادة، إجابة خاطئة؛ لأن ذرات النتروجين والأوكسجين وبقية العناصر واحدة على الدوام، وليس ثمة معنى على الإطلاق في تغيير ذرة ما، بذرة مشابهة لها مع جميع الوجوه. إذن ما هو (الشيء) الغامض الذي يحويه طعامنا لكي يحفظ العضو الحي من التحلل، أي يحفظنا من الموت؟

الإجابة تبدأ من هنا لكي تصبح معقدة إلى حد لا يحتمل، وأنا لا أريد أن أصيب أحدًا باليأس من تفهم العالم الذي يعيش فيه.

إنني سأضع الألغاز العلمية جانبًا، وأدعوكم إلى أن تتذكروا قول القرآن الكريم في سورة الروم: ﴿ يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَيُحْيِي الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَكَذَلِكَ تُخْرَجُونَ ﴾(*). فهذا في الواقع هو القانون العلمي (المتناقض) الذي سأضعه بين أيديكم في المحاولة التالية:

الكون بأسره تحكمه ظاهرة واحدة تتمثل في (نقصان الطاقة) الذي يعمل بموجب القانون المدعو باسم (الثيرمودانيمك 2). هذا القانون يحدد بوضوح أن (الطاقة)

(*) الآية (19) من السورة.

Twitter: @alqareah

تتحدر (دائمًا) من الأشكال العليا ـ التي تستطيع أن تحدث الفعل بداخلها ـ إلى أشكال أصغر تبدو فيها عاجزة عن إحداث أي فعل. ولكي لا أصيبك بالتعقيد سأضع لك هنا هذا المثال: إذا سقط حجر من أعلى فإنه ينتج (طاقة) تستطيع أن ترفعه إلى مكانه الأصلي نظريًا على الأقل. ولكن الواقع أن الحجر بمجرد أن يصطدم بالأرض يفقد شكل الطاقة كلية، فإذا كان بوسعك أن تجمع تلك الطاقة الضائعة مرة أخرى ـ ولو بطريقة سحرية ـ ووضعتها تحت الحجر لكي ترفعه من مكانه، فسوف تكتشف أنها ليست كافية على الإطلاق. والسؤال الذي يخطر ببالك على الفور هو بالضبط: (أين ذهبت الطاقة الأصلية؟).

حسنًا. لا أحد يدري أن العالم بأسره تحكمه هذه الظاهرة، ذلك يعني أن كل شيء يفقد جزءًا من (طاقته) باستمرار، وينطلق بلا توقف إلى نقطة الصفر، الشمس تفعل ذلك، والنجوم الأخرى والنبات والحيوان وكل حدث في الكون. وهذا هو القانون المدعو باسم (الأنتروبيا الموجبة)، وكلمة (الموجبة) ترد هنا لكي تشير إلى أن النقص هو الأصل في الكون وليس الزيادة.

وهذا هو السبب أيضًا في أن القرآن قال: (يخرج الحي من الميت). أي اختار الموت في الأصل، ثم قال بعد ذلك: (ويخرج الميت من الحي) لكي يشير إلى الوجه الثاني من قانون (الأنتروبيا السالبة). هذا القانون يقول إن الطاقة تخرج أحيانًا من (الشكل الأصغر) لكي تدخل مرة أخرى في شكل أعلى يتيح لها فرصة القدرة على إحداث الفعل، أي بالضبط عكس القانون السابق، فضوء الشمس مثلاً ـ وهو طاقة ضائعة من

Twitter: @alqareah

الشمس - تدخل النبات لكي يحولها عن طريق خلاياه المعقدة إلى طاقة محدثة للنمو، وكذلك يفعل الحيوان الذي يحول ضوء الشمس إلى طاقة منتجة للعضلات. وكلمة (السالبة) ترد هنا لكي تشير إلى أن (الزيادة) الحادثة ليست هي الأصل في الكون، ولهذا السبب أيضًا قال القرآن: (ويخرج الميت من الحي)، أي اختار الحياة في المقام الثاني لأنها ليست هي الأصل.

هذه لعبة معقدة إلى حد كاف. أليس كذلك؟، ولكننا ما نزال نملك فرصة لإعادة التفسير بطريقة أكثر مباشرة على النحو التالي: إن الطاقة تنقص في جسمك كما تنقص في العالم بأسره، وإذا قررت أن تكف عن الأكل والشرب والتنفس فإن مخزونك من الطاقة سوف ينتهي في لحظة ما - طبقًا للقانون العام - ويجعلك (تموت).

إن ذلك لابد أن يحدث في نهاية المطاف، فأنت لا تملك مخزونًا (أبديًا) من الطاقة، إنك إذا لم تأكل ما يكفى لإنتاج ما تحتاجه من الطاقة فسوف تموت، وقد يتأخر أيضًا أربعين يومًا، ولكنك لابد أن (تموت) على أي حال، وأنت هنا - إلى هذا الحد - تخضع مثل أي شيء آخر - في الكون - لقانون (الأنتروبيا الموجبة) الذي يقول إن (الكون بأسره وبجميع وحداته يفقد طاقته باستمرار)، ولكنك مخلوق (حي)، ذلك يعني أنك قادر على إنتاج الخلايا الحية المعقدة التى تستطيع أن تمتص الطاقة من العالم وتحولها إلى دافع عنك ضد الموت، وأنت تدعو هذه الظاهرة (بالأكل والشرب والتنفس)، وتنطلق

Twitter: @alqareah

على الفور لكي تنال طعامك وتحوله إلى الطاقة التي تحتاج إليها لكي لا تموت.

وأنت هنا ـ إلى هذا الحد ـ لا تخضع مثل أي شيء آخر ـ في الكون ـ لقانون (الأنتروبيا الموجبة)، بل تخضع مثل (الأشياء الحية فقط) لقانون (الأنتروبيا السالبة). ذلك يعني أنك تستخرج (حياتك) من (الموت)، أو ـ بكلمة أخرى ـ تستخرج الطاقة التي تحتاجها من الكون الذي (يفقد طاقته) باستمرار.

فدعونا ننظر مرة أخرى إلى الآية الكريمة: (يخرج الحي من الميت)، أى يمنح الحياة الطاقة اللازمة من وحدات الكون التى تفقد طاقتها باستمرار، (ويخرج الميت من الحي)، أي يجعل الحياة تفقد طاقتها باستمرار طبقًا للقانون العام. (ويحيي الأرض بعد موتها)، أي يعيد الحياة إلى النبات عن طريق إمداده بالطاقة المتوفرة من ضوء الشمس، كما تعاد الحياة إلى الإنسان عن طريق إمداده بالطاقة المتوفرة من الطعام وضوء الشمس معًا. (وكذلك تُخرجون)، أي أن حياتنا الحاضرة قد جاءت ـ في الواقع ـ من الموت نفسه، فلو أن الشمس لا تفقد شيئًا من الطاقة لما أمكن (الحياة) أن تنال تعويضًا عن الطاقة التى تفقدها.

وهذه هى المعادلة كما يضعها القانون الأعلى المدعو باسم (الثيرمودواينك 2) أمام الفلسفة: الكون ـ الطاقة = الحياة، الحياة ـ الطاقة = الموت. أى بصورة أخرى: الشمس تفقد الطاقة فتحدث الحياة، والكون يحصل على الطاقة من الحياة فتَحدث الموت، لأنك (تأكل طوال عمرك وتشرب أيضًا

Twitter: @alqareah

وتتنفس)، أي أنه من المفروض أن تخزن في داخلك كل الطاقة التي تنتجها، ولكن ذلك ليس هو الواقع، فأنت أيضًا تفقد الطاقة كما تفقدها الشمس، وليس ثمة من يعرف أين تذهب تلك الطاقة سوى أنها لابد أن تذوب في الكون بطريق أو بآخر. وتبقى المعادلة بعد ذلك على هذا النحو: (يخرج الحي من الميت) = أنتروبيا سالبة من أنتروبيا موجبة = النقصان من الزيادة.

(يخرج الميت من الحي) = أنتروبيا موجبة من أنتروبيا سالبة = الزيادة من النقصان.

وهذا يعني في الواقع أن الحياة هي السالبة وليس الموت، أي أن العضو الحي الذي يتحلل في القبر لا يتحول إلى ناقص بل إلى زائد، فهو ـ بالضبط ـ يتخلص من ظاهرة إنتاج الطاقة، أو ـ بكلمة أخرى ـ يتخلص من (الأنتروبيا السالبة).

فهل تقدمتُ هنا بإجابة حقيقية على السؤال السابق؟

أنا أشك في ذلك. فالأمر كله ما يزال معقدًا إلى حد لا يحتمل، وما يزال المرء يستطيع أن يهز رأسه ويقول ببساطة: (حسنًا، ماذا تعني هذه اللعبة؟). وأنا أعترف بأنها لا تعني شيئًا على الإطلاق ما دمنا نعتقد بأن (الحياة) هي الجانب الموجب في العالم، لأن ذلك الاعتقاد في الواقع يخالف أصل الأشياء، ولأن الحياة نفسها لم تكن قادرة على البدء لولا أن الموت بدأ قبلها وجعل الشمس تفقد طاقتها باستمرار وجعل الأوكسجين يتحول إلى أكسيد كربون وجعل المادة تتحول إلى طاقة. فالموت بدأ أولاً ثم بدأت بعده الحياة بالصورة التي نعرفها، ولو كانت الشمس (حية) ـ أي مستهلكة للطاقة وليست

Twitter: @alqareah

فاقدة لها ـ فكيف ننال نحن ضوء الشمس، ولو كانت جميع الوحدات في العالم تستهلك الطاقة مثلنا فكيف ننال نحن حاجتنا من الطاقة؟

إن الموت هو الأصل. هذا واضح من القوانين الطبيعية في العالم، وواضح أيضًا من قول القرآن: (يخرج الحي من الميت). ولكننا ـ بحكم وجودنا المادي ـ لا نستطيع أن ننفذ إلى إدراك هذه الحقيقة قبل أن نخرج من نطاق ذلك الوجود، ونتحرر (كلية) من ظاهرة (الأنا) التي تستمد بقاءها على الدوام من استهلاك الطاقة الضائعة في العالم.

(فالأنا) لا تملك فرصة واحدة لكي تعتبر نفسها في الجانب السالب، إلاّ بقدر ما يملك الجرذ الذي ولد داخل برميل يطفو في وسط المحيط فرصة إدراك الفكرة القائلة بأن العالم ليس مجرد برميل. والمرء لابد أن يخرج من (الأنا) أولاً لكي يرى بنفسه ـ طبقًا لكل الشواهد العلمية القاطعة ـ أن الحياة تأتي من الموت، وأنها بذلك لابد أن تصبح سالبة وليست موجبة، لأن الموجب لا يأتي من السالب بأي حال، فإذا تقررت أمامه هذه الحقيقة المتناهية البساطة، فإنه يستطيع أن يرى الجزء الثاني من الدائرة، فالموت الذي يحدث في العضو الحي لا يجعله سالبًا ـ لأنه سالب أصلاً ـ ولكنه لابد أن يجعله موجبًا ويعيده إلى الكل العام الذي يحكم الكون بأسره.

فدعوني أضع الآية الكريمة مرة أخرى على النحو التالى:

(يخرج الحي من الميت) = يخرج السالب من الموجب، أي الكون – الطاقة = الحياة.

Twitter: @alqareah

(يخرج الميت من الحي) = يخرج الموجب من السالب، أي الحياة - الطاقة = الموت.

(وكذلك تُخرجون) = تتجلى (الروح) الموجبة من الجسد (السالب) بعد أن يتحلل من التراب.

والانحناءة الحاسمة هنا أن المرء لابد أن يبدأ باعتبار الحياة (معتمدة) على الموت، وليس الموت هو المعتمد على الحياة، أي أن الحياة ـ في الواقع ـ هي الناقصة. فإذا حقق المرء هذه المعجزة فإن بقية النقاش لابد أن تتجه أمامه لتحديد إجابة ما، على السؤال التالي:

ما معنى السالب والموجب على أي حال؟

Twitter: @alqareah

الحلقة التاسعة عشر 19

في «الحلقة الماضية» كنت أتعمد تكرار القول بأن (الحياة) هي الظاهرة السالبة في العالم، وأن الموت - أو فقدان الطاقة - هو الجانب الموجب الذي بدأت منه الحياة نفسها، فقد كان يهمني أن أحدد بوضوح كاف، أن فقدان الطاقة هو الأصل، وأن اكتساب الطاقة - كما يبدو في صورة الحياة الحالية - مجرد وحدة سالبة.

فالشمس لا (تعيش) على الأحياء، ولكن الأحياء يعيشون على الشمس، والطعام الذي نستهلكه لا يستمد الطاقة من أجسادنا، ولكن أجسادنا تستمد منه الطاقة، بصورة تبدو أحيانًا مثل تمثيلية صغيرة لظاهرة (اعتماد الحياة على الموت). فأنت لابد أن تحضر السكين لكي تذبح نعجتك، ثم تضع رأسها في اتجاه القبلة، وتذكر عليها اسم الله، وتلزم الحذر في قطع عنقها طبقًا لأحكام الشريعة. وهذه التمثيلية الصغيرة ليست مجرد لعبة لإضاعة الوقت. إن اعتماد الحياة على

Twitter: @alqareah

ظاهرة الموت ظاهرة في أصل العالم نفسه، والإنسان لا يستطيع أن يغمض عينيه تجاه هذه الظاهرة. إنه لابد أن يرى عبر (طقوس الذبح) أن حياته في الواقع تعتمد دائمًا على موت غيره، لذا فإن كل الديانات السماوية تحرم أكل (الميتة) لأن الحياة لا تعتمد على الموت بالصدفة، ولأن الإنسان لابد أن (يريد) قتل حيوان ما قبل أن يملك الحق في قتله. فأنت لا تستطيع أن تذهب للتسكع في الأدغال بحثًا عن الأرانب البرية الميتة لكي تصنع منها طعامك. إن ذلك يبدو بمثابة لعبة طائشة لتجاهل طبيعة حياتك نفسها التى لا تعتمد على موت الأرانب البرية بالصدفة، بل ترتبط ارتباطًا لا عودة منه بالموت الذي يحدث في جميع وحدات العالم.

فالحياة داخل الإنسان عامل مستهلك يعيش متعمدًا على استهلاك الأشكال الحية الأخرى أو الأشكال التي كانت حية، والديانات السماوية تصر على اعتبار ظاهرة (استهلاك الحياة للحياة) رمزًا يحتاج إلى مجموعة من الطقوس الخاصة لكي لا تصبح اللعبة قط مجرد مصادفة بالنسبة لنا. فنحن نقتل لأننا نريد أن نأكل، ولأن حياتنا . بصورتها الحالية . تعتمد على تدمير حياة مخلوق آخر. وليس بوسعنا أن نتجاهل هذه الحقيقة دون أن يصبح ما نأكله (حرامًا). لذا فإن الديانات السماوية أيضًا لا تحرم شيئًا من هوام البحر، لأن الإنسان لا يعيش تحت الماء، ولا يستطيع أن يجد الأسماك الميتة بالصدفة ملقاة في طريقه عند ناصية الشارع. إنه لابد أن يذهب للبحث عنها في المكان الذي لا يذهب إليه عادة، أعني في البحر،

Twitter: @alqareah

ولابد أن يدرك هنا بالطبع أنه يبحث عن شيء يأكله مثل أي صياد.

أما على الأرض ـ حيث يعيش الإنسان دائمًا ـ فإن الأرنب البري الميت الذي يجده المرء في طريقه صدفة لا يصلح طعامًا له في رأي الدين، لأن ذلك قد يعني بالضبط أن الأرانب البرية ـ وكل حيوانات العالم ـ تموت من أجل الحياة، وهو زعم قصير النظر يعتبر الكون بأسره مجرد مسرح للصراع المادي. إن الحياة لابد أن (تقتل) الأرنب البري إذا كانت تريد أن تعيش علي جسده، ولابد أن ترى بذلك أن الموت لا يحدث من أجلها في العالم، ولكنها هي التي (تستفيد) من ظاهرة الموت وتعتمد عليه. ذلك يعني أن الحياة لابد أن تتجلى في الجانب السالب من العالم، وليس في الجانب الموجب الذي تعتمد عليه في أمر بقائها.

وأنا لا أزمع إعادة النقاش مرة أخرى من هذه النقطة القديمة، ولكنني أعرف أنه يبدو ناقصًا ـ ومحيرًا أيضًا ـ إذا توقف عند هذا الحد. فالحياة بالنسبة لنا ليست مجرد ظاهرة للاستهلاك الدائم.. إنها في الدرجة الأولى وحدة شعرية حافلة بالعطاء والفن حتى أن المرء لا يستطيع أن يدعوها سالبة دون أن يحس بأنه يتورط في التناقض.

فما هو السالب والموجب على أي حال؟

الإجابة المتناهية البساطة لابد أن تلفت انتباهكم هنا إلى الحقيقة المدهشة التي يقبض معلم الحساب راتبه لكي يجعلها تبدو غير معقولة. فنتيجة الناقص والزائد يمكن صياغتها على

Twitter: @alqareah

النحو التالي:

3 - 2 = (ثلاثة ـ أعطتنا ـ اثنين).

3 + 2 = (ثلاثة ـ أخذت ـ اثنين).

وذلك يعني في الواقع أن (الناقص) هو الوحدة التي تعطي من نفسها، وليس الزائد كما يتبادر إلى الذهن.

واللعبة ليست مجرد حيلة لخداع البصر. إن علامة الناقص لا تدخل بين عددين إلاّ لكي تجعل أحدهما (يعطي) الآخر من نفسه، أما علامة الزائد، فإنها لا تدخل بين عددين إلاّ لكي تجعل أحدهما يستهلك الاخر. وهذا هو القانون الحقيقي الكامن وراء ظاهرة الحياة والموت معًا. فكل حالة عطاء في العالم تأتي من السالب، وكل حالة أخذ تأتي من الموجب.

والمرء يستطيع أن يرى بوضوح أن اعتبار الحياة وحدة سالبة لا يتناقض قط مع قدرتها على العطاء، كما أن اعتبار الموت وحدة موجبة لا يتناقض أيضًا مع طبيعته في التزام (الأخذ).

إن ذلك في الواقع هو أصل المفارقة. فنحن تخدعنا اللغة بطريقة شبه كاملة حتى نسقط فريسة سهلة لكلماتنا ذاتها، ولكننا إذا تعلمنا أن نقفز فوق هذا الفخ فسوف نرى بيسر أن كلمة (الموت) لا تعني في الواقع (الذهاب محمولاً على الأعناق إلى مقبرة البلدية)، بل تعني ببساطة أنه الجانب الموجب في العالم الذي يتسم بظاهرة (الأخذ). والموت بهذا المعنى ليس نقيضًا للحياة. إنه ـ على عكس ذلك بالضبط ـ هو الحياة نفسها. وأنا أعرف هنا أن الأمر يبدو الآن أكثر تعقيدًا. فالمرء

Twitter: @alqareah

لم يعد يعرف ما إذا كانت الحياة وحدة سالبة متميزة بالعطاء، أم أنها وحدة موجبة متميزة بالأخذ. ولكن المشكلة في الواقع واضحة الحل، إن الحياة هي بالضبط الوحدتان معًا.

فالله حي بالنسبة لجميع الديانات، ولكن حياة الله لا تعتمد على الأخذ، أي أنها خالية كلية من شكل الموت. لذا فهي ـ لغويًا ـ ظاهرة واحدة متسمة بالعطاء الدائم. أما بالنسبة لنا، أي بالنسبة للمادة الحية، أو الروح المتجلية في التراب، فإنه من الواضح أنها ليست ظاهرة واحدة بأي حال، لأنها (تأخذ) كل شيء تجده في طريقها لكي تستطيع أن (تعطي) أي شيء. أما إذا توقفت عن (الأخذ) فإنها لابد أن تتوقف عن (العطاء) وتقع فريسة الموت.

وأنا لا أعتقد أن النقاش يبدو الآن معقدًا بأي حال، فما أقوله هنا هو في الواقع ما قالته جميع الأديان والفلسفات بدون استثناء. فكلمة (الجسد) وكلمة (الروح) هما بالضبط الترجمة الحرفية لكلمتي (الموجب والسالب) اللتين أستعملهما هنا بحثًا عن العامل الرياضي في طبيعة المشكلة.

والأمر بالنسبة لي لا يتعلق بشكل الكلمة ذاتها، بل بطبيعة عملها في العالم، فالموجب هو ظاهرة (الأخذ)، والسالب هو ظاهرة (العطاء).. ولعل المرء يغالبه الشعور هنا بأنني بدأت أتورط في مشكلة صوفية لا علاقة لها بالفلسفة، لأن (الروح) ظلت دائمًا مشكلة صوفية، ولكن ذلك في الواقع مجرد قفزة في الفراغ، فأنا لم أقل شيئًا عن الروح، وليس في نيتي أن أعبر ذلك الباب المغلق مقابل أي ثمن.

Twitter: @alqareah

إن ما أقوله هنا بالضبط هو أن الحياة ـ كما نعرفها بصورتها الحالية ـ ظاهرة متسمة بالأخذ من أجل الأخذ ذاته أو من أجل العطاء. ذلك أمر لا نعرفه على وجه التحديد، ولكننا نعرف ـ بصورة لا تحتاج إلى الجدل ـ أن الحياة ظاهرة متسمة بالأخذ.

فهي (تأخذ) الطاقة من الشمس ومن الماء والطعام والهواء. وهي لا تفعل ذلك مرة واحدة فقط بل طوال فترة بقائها من أول لحظة إلى آخر لحظة، وتنطلق دائمًا في اتجاه واحد لكي تمتص (الطاقة) اللازمة لها، سواء كان ذلك من الشمس نفسها أو من الماء أو من الأرنب البري المذعور الذى يوغل في الهرب محاولاً أن ينفذ بجلده عبثًا أمام قطيع الصيادين. والكائن الحي لا يعرف حدًا لانطلاقه المذهل وراء حاجته من (الطاقة). فالقطة تأكل صغارها، والإنسان يأكل القطة وصغارها معًا، وخلية السرطان تأكل كل شيء حتى نفسها في نهاية المطاف. والقانون الهائل الشمول يحكم (الحياة) بأسرها في جميع صورها البدائية والراقية. فالحياة تحتاج إلى الطاقة لكي (تبقى) أولاً، فإذا حصلت عليها فإنها تسخرها لكي تتكاثر عن طريق التناسل أو الانقسام. أي لكي (تبقى) أيضًا. لأن ذلك وحده هو في الواقع معنى (الحياة).

والمرء يرى هنا ظاهرتي (الأخذ والعطاء) تلتحمان داخل حلقة واحدة. فالكائن الحي ينطلق (لأخذ) حاجته من الطاقة، ويفعل أي شيء في سبيل بقائه على قيد الحياة، فإذا حقق ذلك المطلب فإن الخطوة التالية أن يتناسل أو ينقسم لكي يعطي (الحياة) من جديد.

Twitter: @alqareah

هذه الظاهرة التي تتمثل في (الاستهلاك من أجل البقاء أولاً ثم التكاثر أيضًا) لا تتجلى في شيء آخر في العالم بأسره إلاّ في ظاهرة (النار). فالشرارة الأولى تنطلق لكي (تستهلك) أول مادة تجدها في طريقها من أجل إحراز (الطاقة) للبقاء. فإذا حققت الشرارة الأولى ذلك الهدف فإن الخطوة الثانية أن تلد شرارة أخرى، ثم تنطلقان معًا على نفس الطريق لكي تصبحا أربع شرارات في اللحظة التالية ثم مليون، ثم عشرة آلاف بليون، تمامًا كما تتضاعف خلايا الجسد الحي داخل ظاهرة الحياة. والمرء قد يتصور هنا أنني أذكر (النار) بمثابة مثال مبسط لمعنى الحياة. ولكنني في الواقع لا أفعل ذلك. إن ارتباط النار والحياة هو ظاهرة الكون بأسره طبقًا لجميع الديانات وجميع النظريات العلمية أيضًا. فالحياة بدأت على الأرض لأن الشمس كتلة من النار، والحياة تواصل بقاءها لأنها تستطيع أن (تحرق) مادة الطعام إلى طاقة. وإذا توقفت ظاهرة الاحتراق في العالم توقفت أيضًا الحياة.

والحضارة نفسها بُدئت باكتشاف النار.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة العشرون 20

هذه الحلقة تتفرغ كلية لتحديد أبعاد العلاقة بين الظاهرة التي ندعوها في لغتنا اليومية باسم (الحياة)، وبين الظاهرة الأخرى التي ندعوها باسم (النار). وأنا أزمع أن أقول هنا بوضوح إننى لا أستعمل كلمة النار شعريًا أو بلاغيًا. ولا أريد أن يفهمني أحد بهذا المعنى أيضًا.

إنني أقصد بالضبط ظاهرة النار المشتعلة في موقدك وموقد جارك، تلك اللعبة الحمراء التي تحرق أصابعك بمجرد أن تلمسها لكي تجعلك ترى على الفور أنها ليست معدة للمس. وبداية المقارنة أننا لا نعرف ما هي الحياة ولا نعرف أيضًا ما هي النار. فالشيء الغامض الذي يحدث في قطعة الخشب ويجعلها تحترق، لا يقل غموضًا بالنسبة لنا عن الشيء الذي يحدث في جسد الجنين ويجعله ينمو.

إن كل ما نراه في نطاق واقعنا يبدو دائمًا من نسخة

Twitter: @alqareah

واحدة. فقطعة الخشب في لحظة ما مجرد جسم بارد غير متحرك وغير مضيء، وهي - في اللحظة التالية - عندما تشتعل فيها (النار) جسم ملتهب مضيء قادر على أن (يأكل) غابة بأسرها. ونحن لا نعرف ما الذي يحدث لقطعة الخشب حتى (تتغير) كلية على هذا النحو الواضح، ولكننا نعرف أن ذلك بالضبط ما يحدث في أي جسد (ميت) ويمنحه هبة (الحياة).

ونحن ندعو هذه الظاهرة الغامضة باسم (الروح)، ونتصورها أيضًا بمثابة طائر صغير أبيض يدخل الجسد فيبعث فيه الحياة، ثم يطير بعيدًا عنه ويتركه (جثة هامدة)، ولكن ذلك في الواقع مجرد محاولة رمزية بحتة تهدف إلى إيضاح الظاهرة بالصورة المادية، فقطعة الخشب التي تشتعل فيها النار لا يدخلها طائر أبيض ولا يخرج منها أيضًا، وليس ثمة نص ديني أو فلسفي يزعم أنها تملك (روحًا) من أي نوع. ومع ذلك، فهي تتصرف مثل أي جسد (حي)، وتستهلك غذاءها (مثله)، وتتعرض (للموت) في نهاية المطاف إذا حرمت من الغذاء مثل أية قطة تملك سبعة أرواح.

والعلم الحديث لا يستطيع أن يحل هذا اللغز في المعمل. فالمشكلة لا تتعلق في الواقع بالظاهرة الغامضة التي تدعى في لغات العالم باسم (الروح)، لأن ذلك ليس بالضبط هو شكل اللغز، والعلم يستطيع أن يثبت بيسر أن (الروح) مجرد اصطلاح ميثولوجي لكلمة (الطاقة)، وأن النار والمادة الحية معًا تعيشان بموجب قانون الطاقة وحدها، ولكن المرء لا يحل مشاكله باستبدال أسمائها.

فاللغز ما يزال قائمًا بأكمله لأننا لا نعرف أصلاً ما هي

Twitter: @alqareah

الطاقة، وإذا قرر أحد ما أن يدعو (الطاقة) باسم آخر، ويقول لأطفاله إنها مجرد طائر صغير أبيض يدخل الأجسام الميتة ويهبها الحياة، فإن العلم الحديث لا يمكنه أن يثبت أنه مخطئ بأي حال، ولكنه يستطيع بالتأكيد أن يجعله يرى فخه الميتافيزيقي بوضوح إذا لفت نظره إلى ظاهرة (الطاقة) في النار.

فالاسم وحده لا يعني الخطأ أو الصواب، ولكن معنى الاسم هو الذي يحدد نطاقه، وإذا كان المرء يتصور الطائر الأبيض ـ أول جسم منفصل آخر ـ تحت كلمة (الروح)، فإنه بالتأكيد مضطر إلى التراجع عن هذه اللعبة بمجرد أن يكتشف أن (النار) أيضًا تضم نفس الظاهرة.

فالطاقة هي الأصل المشترك. والحياة نفسها بدأت على الأرض لأنها كانت تمتص الطاقة من الكرة النارية المدعوة بالشمس، والشمس تستمد تلك الطاقة بدورها من (النار) المشتعلة فوق سطحها وفي داخلها مرة واحدة. فالصورة هنا واضحة إلى حد كاف. إن الحياة طاقة مستمدة من النار، وإذا انطفأت الشمس انطفأت الحياة في جميع صورها ومات كوكبنا الأرضي متجمدًا في الصقيع.

ولكن النار لا توجد (خارج) الحياة فقط بل داخلها أيضًا. فالجهاز الهضمى الذى يمنح الحياة هبة الاستمرار عن طريق إيجاد الطاقة، ليس ثمة شيء في الواقع سوى فرن موقد على الدوام مهمته أن (يحرق) الغذاء ويعدّه للامتصاص سواء في الإنسان أو في الحيوان والنبات. وإذا توقفت عملية الاحتراق داخل ذلك الفرن توقفت الحياة أيضًا. فالطاقة لا تصلنا من

Twitter: @alqareah

الخارج فحسب. إننا (نصنع) الطاقة في داخلنا بنفس الوصفة الأزلية التى تستعملها الشمس نفسها، أعنى عن طريق ظاهرة الاختراق الناجمة بفعل النار، والجسد الحي يستطيع أن يبقى على قيد (الحياة) ما دام يملك حاجته من الطاقة، وما دام قادرًا على حفظ توازنها في داخله، فإذا أخل بهذا القانون. سواء بعجزه عن إيجاد (الوقود) اللازم لفرنه، أو عجزه عن إيجاد الهواء اللازم لعملية (الاحتراق)، أو بعجزه عن حفظ توازن الطاقة في جسده عبر حادث سيارة مفاجئ. فإنه (لابد) أن يموت.

والموت يعني في الواقع أن يصبح الجسد باردًا.

أي يفقد حرارته الناجمة عن عملية الاحتراق المتواصل، وتنطفئ الشعلة النارية بداخله وتهبط درجة حرارته من 37 إلى شيء يشبه الصفر، ويصبح معدًا للدفن لكي يتحلل في التراب مثل أي فرن عادي إلى كوم من الرماد.

والمرء يستطيع أن يرى هنا بوضوح مدى التشابه الأصيل بين ظاهرة الحياة وبين ظاهرة النار، فهما معًا مجرد وحدتين من أصل واحد يتجليان في المادة بطريقة متناهية الغموض لكي يمنحاها هبة الطاقة، وهما معًا يعتمدان على ظاهرة (الاحتراق) ويستمدان وجودهما من استهلاك (مادة أخرى) بحثًا عن مزيد من الطاقة التي تستعمل بدورها لتحقيق (التوالد والتناسل) في دائرة مفرغة تتكون من ثلاث حلقات:

الحلقة الأولى: التجلي فى المادة.

الحلقة الثانية: إيجاد الطاقة بالاحتراق.

Twitter: @alqareah

الحلقة الثالثة: استعمال الطاقة للتناسل وبدء الدورة من جديد.

وليس ثمة نوع من النار، وليس ثمة نوع من الحياة، لا يخضعان كلية لهذا القانون الهائل الشمول والوضوح، حتى أن انطفاء النار يتحد في نهاية المطاف مع انتهاء الحياة نفسها داخل شكل (الرماد). والمرء يستطيع أن يرى هنا حقيقة الرمز العميق الغور الذي استعملته جميع النصوص الدينية في كلمتي (نار جهنم) والشيطان المخلوق من النار.

فالرمز ليس مجرد لعبة بلاغية في نهاية المطاف. إنه يشير هنا بوضوح إلى الحقيقة المذهلة التي تتبدى في ظاهرتي الحياة والنار معًا. فالعقاب دائمًا من نوع الذنب. هذا ما تقف جهنم من أجله، ولكن الذنب أيضًا من نوع الدافع، وهذا ما يقف الشيطان من أجله. والرمز العظيم يبدو متناسقًا في داخله أكثر مما نتصور لأول وهلة، فالنص الديني الذي يعلن للإنسان أن مأواه النار ما دام تابعًا للشيطان، يضع في الواقع قضية منطقية كاملة. وما دامت الحياة نفسها ظاهرة احتراق عادية، وما دام المرء لا يؤمن بشيء آخر سوى هذه الظاهرة، فإن جميع دوافعه طوال بقائه لابد أن تصدر من (احتراقه المادي)، أو بكلمة أخرى من الشيطان الناري الذي لا يستطيع أن يخرج من جلده ويكف عن مواصلة الاحتراق.

والقرآن المذهل الأبعاد هو النص الديني الوحيد الذي يصوغ هذه الحقيقة بوضوح أكثر عند ما يعلن في سورة يونس: ﴿ إِنَّ

Twitter: @alqareah

الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴿٧﴾ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾(*).

فالآيات الكريمة تحدد الفكرة بأسرها على هذا النحو:

- ﴿ الَّذِينَ لا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا وَرَضُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاطْمَأَنُّوا بِهَا ﴾، أي الإنسان المادي، الذي لا يعتقد أنه سيواجه قوة أخرى غير قوة احتراقه الحياتي، والذي (يرضى) بأن يفسر الحياة باعتبارها مجرد ظاهرة احتراق، (ويطمئن) عقليًا إلى هذا التفسير.

- ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ عَنْ آيَاتِنَا غَافِلُونَ ﴾، أي المرحلة الثانية من تفكير الإنسان المادي الذي قرر في بداية الأمر أن يعتبر حياته ظاهرة احتراق، ورضي بهذا التفسير واطمأن إليه مزمعًا أن (يغفل) بقية اللغز العظيم باعتباره (لاشيء على الإطلاق).

- ﴿ أُوْلَئِكَ مَأْوَاهُمُ النَّارُ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ ﴾ . فالذي تكسبه ظاهرة الاحتراق هو الاحتراق وحده. وما دام الله قد بدا للإنسان المادي (لا شيء على الإطلاق)، ومادام ذلك الإنسان لم يقرر أن (يكسب) شيئًا آخر سوى ظاهرة احتراقه، فإن حصيلته من كسبه الطويل لابد أن تتمثل في النار نفسها.

أنا لا أقول هنا إن الله لا يملك نارًا حقيقية معدة للكافرين. ولا أنوي أن أتورط في نقاش هذه القضية قيد أنملة، ولكنني أشير بعفوية إلى الظاهرة الكبرى التي تمثلت على طول مسيرة الحياة. فالنار - في أكثر صفاتها وضوحًا - وجود غامض يتجلى

(*) الآيتان (7) - (8) من السورة.

Twitter: @alqareah

في المادة لكي يحرقها مستمدًا منها بقاءه، فإذا حقق هذه المرحلة فإنه يتجه في المرحلة التالية لكي يتناسل أو ينقسم في محاولة واضحة لتأمين بقائه، ثم يعود عبر نفس الدورة من جديد حتى تتدخل قوة ما لإطفائه. فإذا انطفأ في نهاية المطاف فإن قطعة الخشب المحترقة تصير مرة واحدة مجرد جسد بارد عاجز عن التناسل والتجدد.

والنار تفعل ذلك كله من أجل بقائها وحده، وليس من أجل الفلاح الذي يوقدها في مدفأته. والدليل الحاسم على هذه (الأنانية) أن النار تتسلل أحيانًا من المدفأة لكي تحرق الفلاح وبيته معًا.

وأنا أريد أن أقول هنا بوضوح كاف، إن الحياة تفعل ذلك بالضبط. فإذا كان (الإنسان) يعتقد أن صفة (الاحتراق) في الحياة هي كل شيء، وإذا كان هذا التفسير يرضيه عقليًا ويجعله يطمئن إلى قدراته الفكرية، فإنه بالتأكيد لا يستطيع أن يتنصل من تبعيته لظاهرة النار وحدها.

والنقاش ينتهي بالنسبة لي عند هذا الحد بالضبط لكي أتفرغ لقضية جانبية أخرى يهمني أن أحدد أبعادها هنا عبر ظاهرة ارتباط الحضارة بالنار.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الحادية والعشرون 21

في «الحلقة الماضية» كنت أناقش هنا ظاهرة ارتباط الحياة بعنصر النار، وقد اتخذ النقاش مجراه في اتساق ملفت للنظر، حتى لقد بدا أكثر من مرة مجرد سرد واحد لقصة ذات بطلين. والواقع أن النظر إلى مشكلة (الحياة) من هذه الزاوية يبدو قادرًا حقًا على إعادة التناسق إلى معظم المنحنيات القائمة عبر الفكر الديني المعاصر بالذات، خصوصًا عندما يتذكر المرء نصوص الكتب المقدسة التي لا تكف عن لفت إنتباهنا إلى ظاهرة (الإثم) باعتبارها جزءًا من شكل النار والشيطان والجحيم مرة واحدة.

وأنا أعتقد أنني لم أخطئ في فهم هذا الرمز. ولم أخطئ أيضًا في الجمع بين (الحياة) وبين (النار) تحت خانة واحدة، فالواقع أن هذه الدراسة قامت بأسرها فوق قاعدة المقارنة بين هذين العنصرين الغامضين بعد بضع سنوات متواصلة من العمل الواعي بأبعاد المشكلة، ولكنني هنا لا أهدف قط إلى

Twitter: @alqareah

تقديم أية حلول لأزمة الفكر الديني المعاصر، ولا أهدف أيضًا إلى إعانة فقهائنا على تفهم الرموز القائمة تحت سطح اللغة بوسائل الدراسة المقارنة، فذلك كله بالنسبة لي أمر مستحيل لا يمكن تحقيقه في بلد مثل ليبيا قبل مضي زمن طويل، ولكن المشي في هذا الاتجاه يتم هنا لخدمة أغراض أخرى:

فالمشكلة التي تنال اهتمام هذه الدراسة تمثلت منذ البداية في ظاهرة (الكفاءة) المادية.. ذلك الشبح المتناهي الأغراض والغموض الذي ظل يتراءى للحضارة على طول المسيرة الإنسانية منذ محاريث قدماء المصريين البسيطة الصنع إلى جرارات العصر الحالي العالية الكفاءة، وقد بدأت هذه الدراسة بإعداد مجموعة من القضايا المعقدة التي صاحبت تقدمنا المادي على المسرح نفسه، ووضعت الإنسان المعاصر صاحب الجرارات وسفن الفضاء في قفص القرد.

فالمأساة ـ كما تبدو بالنسبة لي ـ هي بالضبط سقوط السعادة الإنسانية في قبضة الكفاءة المادية المتناهية القبح، تلك القضية المسطحة التي تتجلى بكل أبعادها في مدن الحضارة الآلية المعاصرة، وتجعل المواطن (السعيد) يموت بالبهاق على أرصفة لوس أنجيلوس، ويحطم رأسه تحت قضبان القطار في مدينة لاس فيجاس، ويطلق الرصاص على امرأته في مدينة نيويورك لأنها رفضت أن تناوله زجاجة الويسكي من درج البار.

إن تفاصيل اللعبة لا نهاية لها. ولكن شكل اللعبة نفسها محدود للغاية، فالحضارة تلهث وراء (الكفاءة) المادية، والإنسان

Twitter: @alqareah

يلهث وراء (الحضارة)، والنتيجة القبيحة التي تطلع رأسها عبر هذا السباق تحت كل الظروف هي بالضبط (سقوط الإنسان وانتصار الكفاءة).

وأنا أعمل هنا في دراسة هذه المشكلة بقدر ما تتيح لي فرص العمل فوق جريدة يومية غير متخصصة. وقد اخترت منذ البداية منهجًا مبسطًا لعرض ظاهرة (الكفاءة) من الداخل باعتبارها مجرد تعبير عن حالة العجز الدائم الذي يستشعره الإنسان تجاه العالم، وكان بوسعي أن أعلن ـ عبر كلمة واحدة ـ أن الأمر كله خطأ شعري قبيح يرتكبه الإنسان المعاصر نتيجة افتقاره إلى قوة الله، ولكن هذا الإعلان العاجل لم يكن كافيًا حقًا لإظهار نقطة النقاش.

فقوة الله نفسها ـ بعد ثلاث ديانات سماوية وآلاف السنين من الكهان والفقهاء ـ ماتزال قوة مجهولة تأتي من خارج الإنسان، وما يزال إعدادها لمسرح النقاش مجرد جدال ميتافيزيقي، والمرء لا يستطيع أن يسقط في هذا المطب دون أن يتورط في الخرافات.

لذا فقد أرغمني منهج الدراسة على تتبع فكرة (الله) باعتبارها المحرك الحقيقي لشكل الحياة نفسها، وقادتني هذه النقطة إلى العمل شبه الديني في عرض حادثة الخروج من الجنة، وصراع (الأنا) مع الكل كما أظهرته الكتب المقدسة. تلك المأساة التي تستمد جذورها من طبيعة الحياة القائمة على الصراع وإنتاج الطاقة والتوالد من أجل الطاقة ذاتها.

وهذه النقطة بالضبط هي التي منحت الدراسة طابعًا شبه ديني، فالحياة ـ سواء من زاوية الكتب المقدسة أو من زاوية

Twitter: @alqareah

الفكر الفلسفي المحض ـ مجرد شعلة متوهجة داخل المادة تضاهي أية شعلة (نارية) عادية.

ولكن المشكلة تبدأ من هنا في اتخاذ شكلها الأصلي؛ فالحضارة أيضا ـ وليست الحياة وحدها ـ بدأت معتمدة على الطاقة المستمدة من النار، ولعل أحدًا لا يجهل قط أن (اكتشاف) النار هو في الواقع نقطة الانطلاق المعروفة أكثر من سواها أمام مسيرة الإنسان، فقطعة الخشب التي تحترق في مدفأة الفلاح تقف وحدها قاعدة للحضارة الإنسانية بأسرها منذ عصر الكهوف المليئة بعظام الناس والأرانب إلى عصرنا الحالي المتجه إلى القمر.

والنار هي الطاقة.

فالحضارة لا تبحث عن (شعلة نارية ملتهبة)، ولكنها ـ مثل الحياة بالضبط ـ تبحث عن الطاقة، وتسخرها لتحقيق (الكفاءة المادية) من أجل مزيد من الطاقة. وهذه هي المفارقة من الداخل التي تبدو بدرجة واحدة من الوضوح بالنسبة لأمر (التمدن) أيضًا:

فالحياة تبحث عن (الغذاء) لكي تستمد منه (الطاقة) من أجل مزيد من الطاقة، والحضارة تبحث عن (الغذاء) لنفس الهدف بالضبط. وقد بدأت مسيرة الحضارة باستئناس الحيوان واستعماله بمثابة مصدر (دائم) للطاقة. فالفلاح يأكل نعاجه ويشرب حليبها، ويستعمل ثيرانه لجر محاريثه لأنها تملك (طاقة) أكثر، ثم ينتقل في المرحلة التالية لكي يستأنس (الآلة).. ذلك الوحش الحديدى الذى يستطيع أن يمنحه

Twitter: @alqareah

مصدرًا لا ينضب من (القوة)، ويستطيع أيضًا أن يحمله فوق ظهره إلى سطح القمر.

وأنا أتمنى هنا أن ألفت نظركم إلى أنني في الواقع لا أستعمل أية لعبة شعرية في تحديد أبعاد هذه الحقائق، ولا أريد أن يفهمني أحد على هذا النحو. إن الكلمات التي أستعملها مقصودة بالضبط، ومقصود أيضًا المقارنة بين (غذاء) الحياة و(غذاء) الحضارة، واعتمادهما الكامل على الطاقة، وانطلاقهما معًا في اتجاه واحد يهدف دائمًا إلى الحصول على (الطاقة) الباهظة الثمن.

والأمر لا يبدو عاديًا بالنسبة لي. فأنا لا أستطيع أن أرى وجه الأتفاق الواجب بين الحياة - باعتبارها شعلة متوهجة داخل قطعة لحم - وبين الحضارة باعتبارها شعلة فكر متوهجة داخل المادة الميتة. إن الأمر لا يحتاج إلى أن يبدو متناسقًا بالضرورة، والمرء يستطيع أن يتصور أن تقوم الحضارة الإنسانية على قاعدة مختلفة، وتتجه أيضًا للبحث عن شيء مختلف غير (الطاقة). ولكن ذلك - لسبب أو لآخر - لم يحدث، ولم تتجه الحضارة إلى البحث عن شيء آخر، بل انطلقت عبر مسيرة واحدة من (ثيران المحاريث القديمة) إلى (محركات الجرارات المعاصرة) منهمكة في الجري وراء مزيد من الطاقة، لاستعمالها في إيجاد مزيد من القوة المادية بغض النظر عن (سعادة) الإنسان أو شقائه.

فانظروا حولكم في هدوء. إن كل شيء يحترق داخل حضارتنا: محرك السيارة يحترق، ومولد الكهرباء والولاعة وعود الثقاب ومحرك الطائرة والصاروخ ومحطة توزيع المياه

Twitter: @alqareah

والفرن الغازي والسفن العملاقة وقطارات السكة الحديد والمصانع والجرارات والمدافع والمصابيح الكهربائية والمفاعل الذري وآلات الطباعة وسفن الفضاء وكل شيء.

كل شيء يحترق، ويستهلك الوقود لإنتاج (الطاقة) وينفثها دخانًا يضيع عبثًا في الفضاء. ولعل أعظم رمز حقيقى على اندلاع هذه الظاهرة في حضارة الإنسان بأسرها يتمثل الآن بوضوح صاعق في عادة التدخين، تلك اللعبة المتسمة بالعبث التي لا تعني شيئًا في الواقع سوى أن الإنسان (يحرق) سيجارته في محاولة غامضة من منطقة اللاوعي للتعبير عن حالة (الاحتراق) الهائل في حضارته بأسرها. فالتدخين عادة معاصرة لم تنتشر قط إلاّ في عصر (الآلة) التي تنفث دخانها في وجه أهداف الحياة الإنسانية عبر انطلاقة هذا العصر المدهش وراء شبح (الكفاءة المادية).

والمعادلة يمكن إعادة صياغتها من هنا على أي نحو. فنحن نملك شيئين وهميين ندعو أحدهما (الحياة) وندعو الآخر (الحضارة)، ونحن نعرف أن العلاقة الصاعقة الوضوح بينهما معًا هي بالضبط لهاثهما المحزن وراء (الطاقة)، والطاقة وحدها من هنا إلى الأبد. وإذا كان أحد لا يعرف ما هي (الطاقة) على أي حال، فإن الشيء الذي تلهث وراءه الحياة والحضارة معًا معروف لدينا بالتفصيل. إنه بكلمة واحدة (الكفاءة المادية).

وإذا كان ذلك لا يبدو مفاجئًا بالنسبة لأحد، فإنه يبدو أكثر من مفاجئ بالنسبة لي. فأنا أحس بمدى (الألم) الذي أحدثه صراع الحضارات وراء شبح الكفاءة، وأحس بمدى شقاء الإنسان داخل هذا السباق المضحك، وليس بوسعي أن أصدق

Twitter: @alqareah

قط . تحت أية ظروف . أن (الألم) جزء من الحياة، أو أنه ضريبة لا مفر من أدائها في العالم الذي منحه لنا الله.

أنا أعتقد أن الألم نتيجة لأخطائنا وحدنا.

وأعتقد أيضًا أن الله لم يكتبه على جباهنا، ولم يضعنا في أرضه الخضراء لكي نقاسي فضائح حضارتنا العقيمة. إن الأمر كله مجرد نتيجة متوقعة لانطلاقتنا الخاطئة منذ البداية، فنحن وضعنا أيدينا في النار التي جاءت لكي تمنحنا الدفء، ونحن نحس بألم الحرق لأن النار ليست معدة أصلاً لكي يضع المرء يديه المضحكتين فيها، فدعوني أعرض عليكم هذه الحفنة من الشعر المحزن.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الحلقة الثانية والعشرون 22

« تمهيد »

ومرة أخرى سأقول هنا إن مظاهر الجري الأعمي وراء الكفاءة المادية عبر مسيرة الحضارات مجرد تعبير عن حالة العجز الذي يحسه الإنسان تجاه العالم نتيجة افتقاره إلى (قوة الله). ومرة أخرى سأقول أيضًا إن هذه اللعبة المشينة تدعى (بالأنانية)، وأن الدين سقط حقًا في هذا الفخ غير السماوي وأصبح مجرد سلاح جديد يضاف إلى أسلحة القرد العاري في بحثه الجشع عن مزيد من الكفاءة. وإذا كان هذا القول سوف يتسبب في إثارة غضب بعض العباد الأتقياء، فأنا أعتقد أن الأمر يسهل إثباته على أي حال.

فالبابا المقدس الذي قضى معظم القرون الوسطى في الصلاة للمسيح لكي يساعده على سرقة بيت المقدس لم يكن يفعل ذلك في الواقع من باب التقوى، بل من باب الرغبة في

Twitter: @alqareah

الحصول على (عاصمة دينية) تستطيع أن تخدم أغراضه أكثر من روما. ولو كان بوسع البابا أن يجعل المسيح يهبط من السماء ويتولى قيادة الصليبيين بنفسه لكي يبيد جيش المسلمين في غمضة عين، لما تردد قداسته في ارتكاب هذه المذبحة، فالقرد العاري لا يفعل شيئًا بالمجان، ولا يصلي للمسيح من أجل الصلاة وحدها، بل من أجل (القوة) المادية المطلوبة لخدمة أنانيته البلهاء. ولعل الدين لم يكن معدًا لتأدية هذا الغرض، ولعل الأمر كله مجرد سوء فهم لمهمة الشعور الديني في العالم، ولكن المرء لا يستطيع أن ينكر قط أن الكارثة حدثت على أي حال، وأن البابا المقدس وضع (ربه) في خدمة أغراضه الدنيوية مثل أي سلاح آخر.

وأنا أختار البابا بمثابة مثال مباشر لمجرد الرغبة في تفادي الأمثلة غير المريحة، فالمرء ـ ما دام لا يكتب في روما ـ يستطيع أن يقول عن البابا ما يشاء، ولكن المرء ـ إذا كان يكتب في روما ـ فإنه يستطيع بالطبع أن يختار مثاله من الطرف الآخر ويشير إلى فقي حارتنا العجوز الذي قضى القرون الوسطى والقرون التالية أيضًا في طلب (القوة) من الله لكي يتركه يغنم نساء النصارى ونقودهم ويضع أطفالهم للخدمة في قصر السلطان.

فالقرد العاري يزأر على المنبر في كل الثقافات، ويرفع يديه إلى السماء ويصرخ بأعلى صوته في طلب (المعونة الإلهية) من أجل أنانيته وحدها، دون أن يخطر بباله أن أول درجة في سلّم المعرفة بالله هي أن يضع المرء (أنانيته) جانبًا ويخرج من دهليز رغباته الصغيرة مرفوع الرأس لكي يكتشف بنفسه أن (قوة الله) ليست مسخرة لخدمة الكفاءة المادية الضيقة النطاق.

Twitter: @alqareah

وأنا لا أريد هنا أن أحصر مشكلة استغلال الدين في البحث عن مصادر القوة المادية المعدة لتأدية الحروب وحدها. فالواقع أن الأمر أكثر شمولاً من ذلك، وأكثر قبحًا وإيغالاً في السذاجة المقامة على سوء الفهم والأنانية معًا.

فالعجوز المضحكة التي تتسكع لإيفاء النذور بين أضرحة الأولياء، لا تفعل ذلك في الواقع من باب الرغبة في تحقيق حيلها الصغيرة بقوة سماوية شبه سحرية، فهي تريد أن تزوج ابنتها للبقال المجاور، وتريد أن تساعد زوجها في الحصول على الدرجة الخامسة، وتساعد ابنها في الحصول على سكن بالمجان، وتريد أيضًا مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة التي لا تعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن ترشو المرابط(*) الميت بشمعة وقليل من البخور، والمرء يستطيع بالطبع أن يكسر قلبه بالحزن من أجل تلك السيدة الرقيقة الحال، ولكنه في نهاية المطاف لا يجد بُدًا من النظر إلى المشكلة بأسرها باعتبارها مجرد مأساة جانبية لظاهرة الافتقار إلى (قوة الله).

والفقي نصف المقدس الذي يتشنج بالصراخ فوق المنبر لكي يطلب من الله أن يمد في عمر سيده ويرعاه ويحفظه محنطًا إلى الأبد، لا يفعل ذلك في الواقع من باب الرغبة في تأدية حق الصلاة، بل من باب الرغبة في تأدية حق وزارة الأوقاف. فهو يريد أن يحتفظ بوظيفته، ويريد أن ينال علاوة الغلاء أيضًا ما دام ذلك ممكنًا، ويريد مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة

(*) الولي.

Twitter: @alqareah

التي لا يعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن يرفع يديه إلى السماء ويترك قوة الله تقنع وزارة الأوقاف بأنه أحسن بضاعة في السوق.

وفرقة العيساوية(*) المتجولة التي تذرع أزقة مدننا لاستجداء رحمة الله على أرواح الموتى، لا تفعل ذلك من باب الرغبة في إنقاذ الموتى، بل من باب الرغبة في الحصول على أجرة الحضرة(**)، فالشيخ يحتاج إلى أن يعول أسرته مثل أي مواطن آخر، ويحتاج إلى قليل من النقود في المصرف، ويحتاج إلى مجموعة أخرى من الأشياء المعقدة التي لا يعرف وسيلة فعالة لتحقيقها سوى أن يحترف الوساطة بين قوة الله وبين سكان الأزقة. والأمر يصل هنا إلى حد الاحتيال البسيط، ولكن المرء يعرف بالطبع أن الاحتيال نفسه مجرد مظهر معترف به في معركة الحصول على قمة العيش.

والسنوسية(***) التى بنت ألف زاوية في ليبيا - وبنت أيضاً جامعة بأسرها - لم تفعل ذلك من باب الرغبة في نقل الليبيين إلى الجنة فقط، بل من باب الرغبة في تأكيد حق السنوسيين في الحكم، وإضفاء صبغة القداسة على العرش الوراثي.

ومكة المكرمة لا تعمل الآن(****) بمثابة مركز لالتقاء

(*) طريقة صوفية معروفة في المغرب وليبيا، مؤسسها (محمد بن عيسى).

(**) حلقة الذكر.

(***) حركة دينية مؤسسها (محمد بن علي السنوسي) المتوفى سنة 1856. وقد أنشئت جامعة باسمه فيما بعد.

(****) يقصد أثناء كتابة الدراسة.

Twitter: @alqareah

المسلمين فقط، بل لالتقاء مناصري الحلف الإسلامي(*) أيضًا. واللعبة المشينة تمتد على طول العالم بأسره في جميع العصور وجميع الثقافات. فالإنسان البسيط التركيب الذي فعل كل ما في وسعه لكي يزيد كفاءته المادية باستئناس الثيران والبغال والآلات، لم يتوقف قط عن ارتكاب تلك الحماقة فيما يخص (استئناس) السماء أيضًا.

إنه يحتاج إلى (القوة)، سواء كانت القوة في الثور الذي يجر المحراث، أو في القنبلة التي تحطم ضلوع أعدائه، أو في الدعوات المميتة التي يستطيع أن يجدها عند ضريح المرابط. وليس ثمة شيء لم يفعله الإنسان طوال تاريخه الحضاري في سبيل الحصول على (القوة).

لقد قتل جيرانه لكي يسرق أرضهم. وقتل حيواناته وراء المحراث وعربات الحرب، وعقر النخل وسفك الدماء ومات بالبهاق في انتظار القوة السماوية التي تستطيع أن تحقق رغباته مثل الخاتم السحري وتمحو أعداءه من طريقه وتتركه يستلقى وحده في مخزن الألعاب المدهشة وينعم (بالطيبات) مثل أي سلطان متخلف. وقد ارتكب الإنسان كثيرًا من الحماقات عبر هذا الطريق، ولكن أكبر حماقاته على الإطلاق هي في الواقع محاولته المميتة لكي يجعل السماء أيضًا ـ وليست الأرض وحدها ـ مجرد خادم لرغباته الحسية.

ففكرة الدعاء أسيء فهمها بطريقة تدعو إلى اليأس.

(*) مشروع تعود فكرته إلى سنة 1965، وقد نادت به السعودية وإيران، ثم توقف.

Twitter: @alqareah

والنصوص الدينية التي أجازت الدعاء باعتباره منقذ الإنسان خارج رغباته المادية صارت تفسر دائمًا تفسيرًا خاطئًا لكي تصبح مجرد أداة لتحقيق رغبات الإنسان المادية بالذات، فالمرء لا يرفع يديه إلى الله لكي يجد نفسه في رحابه المضيئة عبر زحام الدنيا المضحكة، بل يرفع يديه إلى الله لكي يقتل أعداءه ويساعده في الحصول على بيت المقدس أو غرناطة أو علاوة الغلاء. وهو هنا لا يرتكب خطيئة فكرية فحسب، بل إنه أيضًا يرتكب رذيلة الطمع الأعمى، ويقوده الشيطان من أنفه إلى ضريح المرابط الميت في نهاية المطاف لكي يكتشف مرة واحدة أن دعواته في الواقع قد حملته أبعد مما يستطيع أن يعود.

وأنا أعرف أن تفاصيل هذه اللعبة لا نهاية لها. وأعرف أن المرء يستطيع أن يضع تاريخ الحضارة بأسره داخل هذه الخانة شبه الوثنية ويرى بعيني رأسه أن قوة الله لم تكن في الواقع قوة سماوية من أي نوع، بل مجرد سلاح أرضي يستعمله النصراني ضد المسلم، والمسلم ضد النصراني، وتستعمله العجوز ضد ضرتها الجديدة، ويستعمله فقي حارتنا ضد وزارة الأوقاف، ويضعه الناس في خدمة أغراضهم الصغيرة التي جاء الدين في الواقع لكي يحاربها بكل الأسلحة. فإذا تحققت المعجزة، ووجد الإنسان كل ما يحتاج إليه من (الطيبات)، وحققت له الأسلحة الأتوماتيكية رغبته في القوة، وأصبح بوسعه أن ينام هادئ البال في ظل نظم التأمين الاجتماعي، فإن الإنسان يحس على الفور أنه لم يعد يحتاج إلى قوة السماء، وينطلق في مسيرة جديدة متميزة بالطيش لكي يعبد

Twitter: @alqareah

(أنانيته) وحدها، كما يحدث الآن(*) في مدن الحضارة الغربية.

فالكنائس في السويد لا يرتادها سوى 6٪ من المواطنين، والكنائس في الدانمرك لا يرتادها سوى 2٪ أيضًا. والمناطق التي تتميز بالأمن الاجتماعي أكثر من هذين البلدين لم تعد تملك كنائس على الإطلاق، فاللعبة واضحة إلى حد كاف.

إن الإنسان يبحث عن قوة السماء لأغراض الكفاءة المادية، فإذا تحققت له فإنه يحس بأنه لم يعد في حاجة إلى شيء آخر سوى أن يجلس على كرسيه الهزاز ويستمتع بمحصول العمر.

وأنا أعرف أن هذه النتيجة مخزية إلى حد لا يحتمل، وأعرف أن وجود الله في الكون أكثر وضوحًا من وجود الكون نفسه، ولكنني لا أستطيع أن أجد نقطة المفارقة في النتيجة النهائية التي وجدتها الكنيسة المسيحية عند آخر الزقاق. فما دام الأمر كله قد بدأ لتوفير الحماية أمام الإنسان وإغراقه في السعادة الدنيوية وإنقاذه من أعدائه، وما دامت السياسة قد حققت ذلك كله خلال الازدهار الاقتصادي الحالي(**)، فلماذا يحتاج المرء إلى أن يذهب للكنيسة؟

أجل.. لماذا؟

الكنيسة تستطيع أن تجد الآن مجموعة من الأسباب الهامة التي تبدو مقنعة بطريقة ما، ولكن المرء لابد أن يتساءل مرة أخرى: لماذا لم تجد الكنيسة تلك الأسباب في القرون

(*) أثناء كتابة ونشر الدراسة.

(**) أعوام الستينيات من القرن العشرين.

Twitter: @alqareah

الوسطى؟ ولماذا توضع قوة الله لخدمة أغراض الكفاءة المادية حتى تقوم السياسة بتحقيق تلك الأغراض، ثم تكتشف الكنيسة أنواع الخدمة الأخرى؟

إن الأمر يحتاج بالطبع إلى بعض الأعذار، ولكن العذر الذي يبدو مقبولاً أكثر من سواه أن الكنيسة أساءت الفهم نتيجة تخلفها الفكري، وأن ذلك الخطأ لا يجوز أن يتكرر مرة أخرى في أي مكان تحت أية ظروف.

Twitter: @alqareah

الحلقة الثالثة والعشرون 23

«البحث عن نهاية»

«الحلقة الماضية» كانت مجرد محاولة للتمهيد أمام إيجاد خاتمة هذه الدراسة، فمواصلة النقاش أبعد من هذا الحد لن تقودني إلى أي مكان أرغب في الذهاب إليه حقًا، لأن ما أردت أن أقوله هنا، قلته كله بدرجة كافية من الوضوح، ولأن منهج الدراسة لم يعد يحتمل خطوة أخرى في أي اتجاه.

فأنا لم أقصد منذ البداية أن أتقدم بأية حلول محددة.

ولم أقصد أيضًا أن أصل إلى أهداف نهائية فيما يخص مشكلة الكفاءة المادية المعاصرة. لقد كان الأمر كله مجرد محاولة ـ نصف عفوية ـ لإيجاد الثقب الحقيقي في جدار حضارتنا الذي تسربت منه معظم مآسي الإنسان طوال تاريخه غير المضيء.

وأنا أعتقد أنني وجدت ذلك الثقب، ولكنني لا أستطيع أن

Twitter: @alqareah

أزعم أن الاكتشاف بأسره يبدو مثيرًا أو جديدًا بالنسبة لأحد. فالخطأ الذي اكتشفته هنا هو نفس الخطأ الذي اكتشفه الإنسان في كل مكان، وفي جميع العصور أيضا. (إننا نبحث عن القوة لأننا نريد أن نبقى)، ولكننا نبحث عنها دائمًا في المكان الخطأ، ونجد أشياء أخرى لا علاقة لها بما نريده حقًا فنخدع أنفسنا عمدًا بمعونة المهرج المدعو باسم الشيطان ونبني فوق رؤوسنا حضارة متهرئة مليئة بالثقوب لكي نتركها تسقط في الموسم التالي. فإذا اكتشف أحدنا المكان الحقيقي الذي تكمن فيه (القوة الحقيقية) فإننا نسارع إلى تعليقه على الصليب في بداية الأمر، ثم يلحقنا الندم على هذه الجريمة المزرية ونبني له مسجدًا أو كنيسة من باب الرغبة في ضرب خمسة عصافير بحجر.

فنحن نبحث عن القوة في المادة ـ هذا هو الأصل بالنسبة لنا ـ ونستأنس الآلة لكي نوفر لأنفسنا عبدًا حديديًا موثوقًا به، ولكننا عندما نسمع بأن مواطنًا يدعى عيسى المسيح أو محمد بن عبد الله، وجد مصدرًا آخر للقوة غير المادة، فإننا ـ في بداية الأمر ـ نعتبره مجرد نكتة حتى يتضح لنا أنه ليس نكتة بأي حال، وعندئذ نلجأ إلى حيلتنا القديمة المزرية، ونضع صنمنا المدعو باسم (القوة المادية) داخل فكرة المسيح لكي نضمن أننا أصبحنا نملك مصدرين للقوة بدل مصدر واحد.

هذه هي اللعبة من الداخل.

فالأديان السماوية التي وصلت إلينا لم تجعلنا نتخلى عن صنمنا المضحك قيد أنملة، ولكنها جعلتنا نتصور أننا أصبحنا أقوى لأننا نملك الآن صنمين، والمرء يستطيع أن يراهن برأسه

Twitter: @alqareah

على أن العالم لا يضم حقيقة أخرى أكثر وضوحًا وقبحًا من هذه الحقيقة بالذات.

فالإنسان لم يتعلم قط أن يبحث عن قوة في داخله، إن ذلك لم يحدث في عصر المسيح، ولم يحدث في عصر محمد إلا عبر بضع لحظات نادرة، ولم يحدث الآن أيضًا رغم كل جهود الفلسفة، ولكن الذي حدث حقًا أن الإنسان وضع (ربه) في الخارج، وعلّقه في السماء لكي يتأكد أنه في الخارج، ثم طفق يرفع يديه في اتجاهه ويدعوه بجميع اللغات لكي يمنحه قليلاً من كنوزه الخرافية.

الإنسان لم يعرف قط أنه عندما يضع «ربه» في السماء يفقده كلية، ولم يعرف أيضًا أن قوة الله إذا لم تتجل «داخل» الحياة، فإن الحياة بأسرها ظاهرة لا داعي لها على الإطلاق، لقد سقط هذا المخلوق المضحك طوال تاريخه الحضاري في فخ أصنامه الوثنية وعبد «ربه» بدون تجريد، ووضعه في الخارج مثل بقية أدواته لكي يلجأ إليه وقت الطلب.

فالرب بالنسبة للإنسان المعاصر ما يزال حتى الآن مجرد آلة للقوة مثل المحراث بالضبط، يلجأ إليه عندما يقرر أن يحرث حقله، ثم يعلقه في السقف بقية أيام العام. وإذا كان ثمة نتيجة لهذا العمل الأناني البحت، فنحن نلمسها الآن بأطراف أصابعنا.

إن الإنسان ـ بعد ثلاث ديانات سماوية ـ ما يزال يحرق الشموع للقديسين والأولياء ويزحف على وجهه أمام قبورهم، متظاهرًا بأن ذلك لا يعني في الواقع أنه يعبد أصنامًا ميتة.

Twitter: @alqareah

والإنسان ـ بعد ألف قرن من المعرفة ـ ما يزال يرفع عينيه إلى «أعلى» لكي يدعو ربه، متظاهرًا بأنه لم يتعلم بعد أن الفضاء الأزرق الذي يمتد فوق رأسه مجرد فراغ مزدحم بكرات النار الملتهبة، وأن الله لا يجلس في الفراغ.

والإنسان ما يزال يأتي إلى هنا(*) فاتحًا فمه على مصراعيه لكي يأخذ كل ما تصل إليه يده من علاوة السكن إلى أرض الفلسطينيين الفقراء، متظاهرًا بأن هذا الجشع المضحك ليس في الواقع هو بالضبط ما يريدنا الله أن نحاربه داخل الحياة قبل أن يرغمنا الموت على ترك كل شيء جانبًا والخروج من الدنيا بقطعة قماش.

والإنسان ما يزال مجرد درويش بضاعته النفاق، يجلس على ناصية المسجد والكنيسة لكي يبيع الهداية للعباد، متظاهرًا بأن ارتزاقه باسم الدين ليس في الواقع هو الجري وراء الدنيا في أسوأ صورة لكسب لقمة العيش.

والإنسان ما يزال يعبد ألف إله في ألف مدينة، ويسرق بيت المقدس باسم المسيح، ثم يستعيدها باسم المسيح أيضًا، ويدعو للهند ضد الصين باسم بوذا، ويدعو للصين ضد الهند باسم بوذا أيضًا، ويموت مثل الكلب الضال ضحية البحث عن عظم عارٍ.

والإنسان ما يزال يعيش على الأشعار، ويملأ صدره مليون حلم أخرق بالسيارة الجميلة والمرأة الجميلة وزجاجة الكونياك لكي يجلس بجانب المدفأة ويمضغ مللـه حتى الموت، متظاهرًا بأن ذلك بالضبط هو (نعمة الله).

(*) المقصود: الحياة الدنيا.

Twitter: @alqareah

والإنسان ما يزال يعشق نفسه ويموت بالنرجسية في وضح النهار متظاهرًا بأن غاية الحضارة والحياة معًا أن يمتلك المرء (كل ما يشتهيه)، ويذهب إلى الكنيسة يوم الأحد لكى يرفع قبضته أمام المسيح دون أن يخطر بباله أن المسيح نفسه لم يفقد دقيقة واحدة في حياته لكي يمتلك (ما يشتهيه). والإنسان ما يزال دودة تجاهد لكي تؤمّن بقاءها على مسرح الصراع منطلقة في نفس الطريق القديم الذي ساده قانون (البقاء للأصلح)، دون أن يخطر بباله أن ذلك القانون المزري كان يحكم تطور المادة المزرية، وأن قفزة العقل الإنساني لا يجوز أن تبقى حبيسة هذا القفص إلى الأبد.

الإنسان ما يزال على بُعد شبر واحد من البحر الذي خرج منه ذات يوم زحفًا على ركبتيه، وليس من المحتمل أن يبتعد عن البحر أكثر من ذلك ما دام كل سلاحه لإثبات وجوده هو أن يمتلك بندقية ليقتل من يصادفه، ويجمع القواقع في جرابه لكي ينال (ما يشتهيه) في نهاية المطاف، ثم يضعه جانبًا ويموت على الرصيف.

الإنسان المليء بالغرور الذي خرج ذات يوم من مياه البحر لكي يضع الأرض في خدمته، سوف يعود إلى البحر مرة أخرى لأنه انتحر طائعًا عندما أراد أن يضع السماء أيضًا في خدمته. فاللعبة لا تحدث فوق هذا المسرح المنهار، والحياة بأسرها لا تستطيع أن تصمد قط لكي تصبح هدفًا لذاتها.

إن النار توقد في المدفأة لكي تمنح الدفء وليس لمجرد أن تحرق أخشابنا. والحياة توقد في داخلنا لكي تمنح أكثر من الدفء وليس لمجرد أن تبقى سعيدة في متحف شهواتها

Twitter: @alqareah

الصغيرة. وما دام الإنسان لا يستطيع أن يقهر طمعه لكي يفهم هذه الحقيقة البسيطة، فإنه سيبقى - حتى إلى الأبد - مجرد مخلوق بلا فضائل، يرتعش جبنًا أمام ظله، ويعمل بوسائل النفاق والغدر لكي لا يقطع السلطان رأسه في السوق.

.. فماذا يبقى في الإنسان عندما يفقد ربه في السماء سوى كتلة الشحم واللحم؟

ماذا يبقى في الإنسان عندما يضع (ربه) في الخارج سوى حفنة من الأمعاء النتنة وفضلات الطعام؟

ماذا يبقى في الإنسان عندما يدلق قوة ربه على قبر القديس وبلاط السلطان ومكتب المدير وشهواته الصغيرة سوى مهرج منافق يرتعد رعبًا طوال النهار، وتسقط ركبتاه من الخوف كلما ارتفع في وجهه إصبع سيده؟

إنه يستطيع أن يمتلك كل الأسلحة المريعة في العالم، ويستطيع أن يمتلك ألف قنبلة وألف سفينة وألف إمرأة أيضًا، ويستطيع أن يملأ نفسه بالغرور إلى حافته، ولكنه سيظل دائمًا - حتى الأبد - مجرد مهرج منافق يرتعد رعبًا أمام ظله، ويعيش فاتحًا فمه على مصراعيه لكي يأكل كل شيء، حتى يضع الموت حفنة تراب بداخله ويسده مثل أية خربة متهدمة.

الإنسان قوة في داخله لأنه يملك هناك قوة الله.

فإذا فقد ذلك في الفراغ الذي يدعوه السماء، وإذا فشل في أن يرفع رأسه معتزًا بقوة فضائله وحدها، فإنه في الواقع لن يترك شيئًا في حوزته سوى كتلة اللحم الخرقاء التي خرج بها

Twitter: @alqareah

ذات يوم من مياه البحر زحفًا على ركبتيه مثل أي جارية في حضرة السلطان.

وأنا أعرف أن الإنسان ليس جارية، وأعرف أنه سيجد طريقه في نهاية المطاف ويطلق القوة الحقيقية الكامنة في داخله . كما أطلق أسلافه البُلهاء قوة الثيران والمحاريث الميكانيكية . وسوف لن يفشل الإنسان هذه المرة، ولن يجعله السلطان يرتعد رعبًا في حضرته المهيبة. فالله أكثر هيبة.

الله أكثر هيبة بلا حدود.

Twitter: @alqareah

ملحق:

- صورة للحلقتين الأولى والأخيرة من الدراسة أثناء نشرها في صحيفة الحقيقة. بنغازى. 1969-1960.
- رسالة حول الدراسة نشرت مع الحلقة الحادية عشرة بتاريخ 1969/8/30.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

الصفحة الثالثة — الحقيقة — ٢١ يونيو ١٩٦٩

العودة المحزنة الى البحر

صادق النيهوم

السؤال المسطح الذي يلهث العالم وراء اجابته طوله في الواقع اربع كلمات = (ماذا يحدث لحضارة امريكا ؟) .. والمرء يتصور بالطبع ان ذلك يخص الامريكيين وحدهم ، وان الاجابة الصحيحة لابد ان تصل من الداخل ، ولكن امريكا ايضا لا تعرف اجابة محددة .. انها تعاني مرضا غامضا مميتا يعيد الغور يستطيع المرء ان يسمعه يتفشى في كل المدن المتسعة الشوارع ، ولكنه لا يستطيع ان يعرف كنهه قط . مرض يشبه رائحة جثة غير مرئية تتعفن في مكان ما من ذلك العالم المترامي الاطراف ، ولا يعرف احد مكانها بالضبط .

وحضارة امريكا تجربة فريدة في تاريخ العالم المادي .

انها قمة المحاولة التي بدأت منذ بضعة آلاف من السنين لحل مشاكل الانسان المادية بزيادة الانتاج وتحسين الصنف وهي ايضا نقطة النهاية التي وصلت اليها الاحلام الانسانية القديمة بتوفير اكبر قدر من (الحرية) داخل اكبر قدر من فرص النظام (الديمقراطي) لتحقيق الغايات النهائية للرخاء .

فليس ثمة شعب آخر — في تاريخ العالم بأسره — بنى حضارة متكاملة نظريا كما فعل الشعب الامريكي وليس ثمة شعب ايضا حقق اسطورة (الكفاءة) المادية كما تتحقق الآن في الآلة الفولاذية المجنونة التي تدور بلا توقف في مصانع الولايات المتحدة .

ان (الكفاءة) كانت الهدف الحقيقي لكل الحضارات منذ ان اكتشف الانسان — في احدى لحظاته المشحونة باليأس — انه لا يستطيع ان ينال حاجته من الغذاء باصطياد الارنب البري إلا اذا تعلم كيف يصبح اكثر (كفاءة) من ذلك الارنب .

ولقد بدأ الانسان فاخترع السهم ، واصطاد به ارنبا بريا . واكتشف اذ ذاك ان السهم يستطيع ان ينطلق بسرعة اكبر ، ويضرب بدقة اكثر ، وان بوسعه ان يقف في مكانه ويتركه ينطلق وراء الصيد دون ان يكلف نفسه مشقة الجري . وصنع الانسان كثيرا من السهام ، وتعلم كيف يصبح اكثر (كفاءة) من الحيوانات البرية التي لا تعرف كيف تزيد كفاءتها من الحد الطبيعي ، ولكن الانسان تورط ايضا في صراع غير متوقع مع بقية الميادين .

فجودة السلاح تعني وفرة الطعام ، ووفرة الطعام تعني زيادة مطردة في النسل ، وقد تزايد هذا الجنس الكفء وطفق يزحم معظم المناطق حتى اصبح السهم سلاحا قديما مفتقرا الى الكفاءة التي يتطلبها صراع المنافسة ..

■ وصنع الانسان بندقية . وصنع اشياء كثيرة اخرى ..

وظل طوال تاريخه الحضاري يجري بلا توقف وراء تحقيق مزيد من (الكفاءة) في كل اتجاه عبر تلك اللعبة القديمة المشحونة بالاشعار والفلسفة التي تسمى (بالتطور) .

وانا اريد ان الفت النظر هنا الى ان كلمة الكفاءة معناها في الواقع زيادة القدرات المادية وحدها ، وهي صفة لا يتميز بها سوى الانسان العاقل ، فالحيوانات لا تستطيع ان تزيد كفاءتها في الجري او في مصادر القوة الا بمقدار ضئيل للغاية ، اما الانسان فانه يستطيع ان يتحرك بسرعة الف ميل في الساعة ويستطيع ايضا ان يرفع معبد ابي سمبل من مكانه .

■ وهذه — في الواقع — لعبة التطور من الداخل ..

انها مجرد سعي متصل لتحقيق مزيد من (الكفاءة) خارج جدران الطبيعة الصلدة ، وليس ثمة شيء واحد في حضارات العالم لم يتم بناؤه لهذا الغرض سوى الديانات المقدسة . فالدين لم يأت لزيادة قوة الانسان المادية بل لارشادها ، رغم انه خضع دائما لعمليات التشويه المباشرة من قبل رجال الدين ، اما بقية الافكار التي نبعت في تاريخ الحضارة الانسانية فقد ظلت على الدوام مصدر امل غامر في زيادة (الفعالية) الانسانية تجاه العالم المادي . وانا اتعمد هنا ان اغفل مهمة الفن ، لانني — في الواقع — اعتبر ذلك في اكثر صوره اصالة جزءا من الاوليا الكلية المتمثلة في الدين .

■ فالانسان حيوان يبحث عن الله ..

ان ذلك — فيما يبدو — هو الغاية النهائية للوجود بأسره ، والمرء لا يستطيع ان يجد تفسيرا اكثر التماما لظاهرة الفن في العالم ، ولكن المرء ايضا يستطيع ان يقول بهدوء ان الحضارات الانسانية التي عرفها التاريخ حتى الآن لم توفق قط بين هذه الغاية وبين لغة الكفاءة المادية .

فالصراع يبدأ دائما في الوقت المناسب ويجعل الدين او الفن يتأخر الى المرتبة الثانية لكي تحتل (الكفاءة) المرتبة الاولى . وقد حدث ذلك بعد بضعة اعوام من نزول التوراة ، وحدث بعد بضعة اعوام من تبني الدولة الرومانية للدين المسيحي وحدث بعد عشرين عاما فقط من نزول القرآن ، وتلخص دائما من قيام هيئات سياسية خاصة تهدف بصورة ما الى تحقيق مزيد من (الفعالية) المادية .

■ فالانسان تائه المسافة عبر ذعره الطبيعي من تهديد بقائه ..

والانسان يتنازعه عالمان متناقضان الى حد مذهل ، احدهما يجره الى السماء بقلبه والآخر يربطه الى الارض بقدميه ولقد اثبت في فترات متباعدة انه يستطيع ان يحقق صعوده الى اعلى ولكنه في اغلب الاحيان ظل سجين احلامه المتناهية الباطلة ، وظل يلهث وراء مزيد من (الكفاءة) المادية ، مدفوعا برغبة جامحة في تحقيق مستوى الحياة الافضل ، وامتلاك الاسلحة الافضل ، والجلوس في اقرب مكان ممكن الى جنته الوهمية .

يعلن بثقة ان لعبة (الكفاءة) التي ظلت تمد حضاراتنا بالاهداف والقيم وظلت المصدر الحقيقي لتطور عالمنا المعاصر في ميدان الآلة لم تثبت حتى الآن انها تستطيع ان تتجنب الخطأ النهائي القاتل وتطوي الانسان نفسه تحت جناحها الاسود باعتباره مجرد آلة ملزمة بالتطور المادي .

■ ان (الكفاءة) هي هدف الحضارة ولكنها ليست هدف الانسان ..

والكتب المقدسة تقرر هذه الحقيقة في بساطة متناهية تدعو المرء الى ان يتذكر على الفور الرمز القديم المشحون بالخوف ، واظهار الرفض الذي تعلم الانسان — قبل ان يغادر كهفه الحجري — ان يدعوه باسم (الشيطان) . لهذا المخلوق الناري المليء بالنوايا السيئة لا يتسبب في ايذاء احد ايذاء مباشرا ولكنه يقوده على الدوام الى حتفه النهائي ، وذلك بالضبط ما فعلته نظرية الكفاءة في جميع الحضارات .

■ انها تأخذ بيد الانسان الى الجحيم ..

وتتجول تحت السطح اللامع في ملاذة مطلقة جنبا الى جنب مع رغبة الانسان نفسه في تحقيق الشيء المادي الافضل لم تأخذ بخناقه ذات يوم ويكتشف في لحظتها ان (الشيطان) قد خدعه دون ان يدري .

■ وفي الولايات المتحدة حدث ذلك بصورة واضحة الى

Twitter: @alqareah

الصفحة الثالثة — الحقيقة — السبت ٢٥ شوال ١٢٨٩ هـ — الموافق ٣ يناير ١٩٧٠ م

الحلقة الاخيرة البحث عن نهاية

الحلقة الماضية كانت مجرد محاولة للتمهيد امام ايجاد خاتمة هذه الدراسة ومواصلة النقاش ابعد من هذا الحد لن تقودني الى اي مكان ارغب في الذهاب اليه حقا، لان ما اريد ان اقوله هنا ، قلته كالمبرمجة كافية من الوضوح ، ولان منهج الدراسة لم يعد يحتمل خطوة اخرى في اي اتجاه .

● فانا لم اقصد منذ البداية ان اقدم بأية حلول محددة .

ولم اقصد ايضا ان اصل الى اهداف نهائية فيما يخص مشكلة الكتابة الليبية المعاصرة لقد كان الامر كله مجرد محاولة — نصف ملونة — لايجاد الثقب الحقيقي في جدار حضارتنا الذي تسربت منه معظم مآسي الانسان طوال تاريخه في الكون .

العودة المحزنة الى البحر

صادق النيهوم

● وانا اعتقد انني وجدت ذلك الثقب ، ولكني لا استطيع ازعم ان الاكتشاف بأسره ... شيئا او جديدا بالنسبة لاحد ، فالخطأ الذي اكتشفته هنا هو نفس الخطأ الذي ... الانسان في كل مكان ، ... جميع العصور ايضا .

● انا نبحث عن القوة لاننا ... بد ان نبقى ، ولكننا نبحث ... دائما في المكان الخطأ . ... اشياء اخرى لاعلاقة لها ... نريده حقا فنخدع انفسنا ... بمعونة المسرح المدمر ... الشيطان ونبني فوق ... حضارة متهرئة مليئة بالثقوب لكي نتركها تسقط في ... التالي . فاذا اكتشف ... المكان الحقيقي الذي ... فيه « القوة الحقيقية » فاننا نسارع الى تغطيته على ... في بداية الامر لم ... حقا للتدجيل هذه الجريمة المزرية ونبني له مسجدا او كنيسة من بناب الرغبة في ... خشبة معابر بحجر .

■ فنحن نبحث عن القوة في المادة .

هذا هو الاصل بالنسبة ل... ... الثور لكي يجس ... مرات ، و... الآلة لكي توفر لانفسنا ... جديدا ... به ، ولكننا ... ، مواطنا يعني عيسى المسيح ، محمد بن عبدالله ، ونجد مصدرا اخر للقوة في المادة ، ... في بداية الامر ... ... نكتة حتى يتضح لنا ... ليس نكتة باي حال ونعلل عجبا الى جيلنا القديمة ... ، ونضع منها ... « القوة المادية » داخل ... المسيح لكي نضمن اننا اصبحنا نملك مصدرين للقوة ... مصدر واحد .

● هذه هي اللعبة من الداخل .

فالاديان السماوية التي ... الينا لم تجعلنا نتخلى ... المضحك في انملة ولكنها جعلتنا نتصور انا ... بحثا اخرى لاننا نملك الان ... ، والمرء يستطيع ان ... من براسه على ان العالم لايضم حقيقة اخرى اكثر ... وحا وضعنا من هذه الحقيقة ... .

فالانسان لم يتعلم قط ان يبحث عن قوة في داخله ، ... ذلك لم يحدث في عصر المسيح ، ولم يحدث في عصر محمد الا عبر بضع حالات نادرة ، ولم يحدث الان ايضا رغم كل جهود الفلسفة ، ولكن الذي حدث حقا ان الانسان وضع « ربه » في الخارج ، وعلقه في السماء لكي يتأكد انه في الخارج ، ثم طفق يرفع يديه في اتجاهه ويدعو ويجمع الثمات لكي يمنحه تقبلا من كنوزه الغرائبية .

● الانسان لم يعرف قط انه عندما يضع « ربه » في السماء يفقده كلية .

ولم يعرف ايضا ان قوة الله اذا لم تحل « داخل » الحياة ، فان الحياة باسرها ظاهرة لامعنى لها على الاطلاق . لقد ... طوال تاريخه الحضاري ... فخ اصنامه الوثنية ومعابدها بدون تجريد ، ووضعه في الخارج مثل بقية ادواته لكي يلجأ اليه وقت الطلب .

فالرب بالنسبة للانسان المعاصر مايزال حتى الان مجرد آلة للقوة مثل ... يلجأ اليه عندما ... جلله ثم يعلقه على السقف بقية ايام العام . واذا كان ثمة نتيجة لهذا العمل الاناني البحت ، فنحن نلمسها الان باطراف اصابعنا .

■ ان الانسان — بعد ثلاث ديانات سماوية — مايزال يحرق الشموع للقديسين والاولياء ويزحف على وجهه امام قبورهم ، متظاهرا بان ذلك لا يعني في الواقع انه يعبد اصنامه ميتة .

■ والانسان — بعد الف قرن من المعرفة — مايزال يرفع عينيه الى « العلى » لكي يدعو ربه ، متظاهرا بانه لم يتعلم بعد ان الفضاء الازرق الذي يمتد فوق رأسه مجرد فراغ مزدحم بكرات النار الملتهبة وان الله لا يجلس في الفراغ .

■ والانسان مايزال يأتي الى هنا نائحا نفسه على مصراعيه لكي يأخذ كل ما يصل اليه بده من علاوة السكن الى ارض الفلسطينيين المقدسة ، متظاهرا بان لعبة الجشع المضحك ليس في الواقع هو بالضبط مايرغبنا الله في نحاربه داخل الحياة قبل ان يرغمنا الموت على ترك كل شيء جانبا والخروج من الدنيا بقطعة قماش .

■ والانسان مايزال مجرد درويش بعمامته ... يجلس على ناحية المسجد والكنيسة لكي يبيع الهداية للعباد ، متظاهرا بان ... باسم الدين ليس في الواقع هو الجري وراء الدنيا ... صورة لكسب لقمة العيش .

■ والانسان مايزال يعبد الف البقر الف مقدسة ويحرق بيت المقدس باسم المسيح لم يستعيدها باسم المسيح ايضا ، ... الهند ضد ... باسم ... الصين ضد الهند باسم بوذا ايضا ، ويموت مثل الكلب القتال ضحية البحث عن ... .

■ والانسان مايزال يعيش على الاستعمار ، ويملأ صدره مليون حلم اخرق بالسيارة الجميلة والمرأة الجميلة وزجاجة الكونياك لكي يجلس بجانب المدفأة ويستمع ... الموت ، متظاهرا بان ذلك بالضبط هو « نعمة الله » .

■ والانسان مايزال يشنق نفسه ويموت بالرجبة في وضح النهار متظاهرا بان غاية الحضارة والحياة معا ان يملك المرء « كل مايشتهيه » ويذهب الى الكنيسة يوم الاحد لكي يرفع قبعته امام المسيح دون ان يخطر بباله ان المسيح نفسه لم يفقد دقيقة واحدة في حياته لكي يملك « مايشتهيه » .

■ والانسان مايزال دودة تجاهد لكي تؤمن بقاءها على مسرح الصراع منطقة في نفس الطريق القديم الذي ساده قانون « البقاء للاصلح » دون ان يخطر بباله ان ذلك القانون ... يحكم تطور المادة المزرية ، وان قانون العقل الانساني لا يجوز ان يبقى حبيسة هذا القفص الى الابد .

■ الانسان مايزال على بعد شبر واحد من البحر الذي خرج منه ذات يوم زحفا على ركبتيه . وليس من المحتمل ان يبتعد عن البحر اكثر من ذلك مادام كل سلاحه لاثبات وجوده هو ان يمتلك بندقية ليقتل من يصادفه ويجمع النقود في جرابه لكي يملك « مايشتهيه » في نهاية المطاف لم يطعمه جانبا ويموت على الرصيف .

■ الانسان الملئ بالغرور الذي خرج ذات يوم من مياه البحر لكي يضع الارض في خدمته ، سوف يعود الى البحر مرة اخرى لانه انتحر ... عندما اراد ان يضع السماء ايضا في خدمته .

فاللعبة لاتصمد اوان هذا المسرح المنهار والحية باسرها لاتستطيع ان تصمد لكي تصبح هدفا للاتهام .

● ... الناس ... لكي ... الدنيا ... وليس لمجرد ان تحرق ... .

والحياة ... في داخلنا لكي ... اكثر ... وليس لمجرد ان تبقى ... في ... شهواتها الصغيرة . ومادام الانسان لا يستطيع ان ... طمعه لكي يفهم هذه الحقيقة البسيطة ، فانه ... — حتى الى الابد — مجرد مخلوق بلا فضائل ، يرتمي ... امام ظله ، ويصل بوسائل النفاق والتسيد لكي لا يقطع السلطان رأسه في السوق .

● فماذا يبقى في الانسان عندما يفقد ربه في السماء سوى كتلة الشحم والعظم ؟

● ماذا يبقى في الانسان ... يضع « ربه » في الخارج ... سوى حفنة من الاحماء ... وفضلات الطعام ؟

● ماذا يبقى في الانسان ... قوة ... الشيخ وبلاط السلطان ومكتب المدير وشهواته الصغيرة سوى مهرج منافق يرتعد رعبا طوال النهار ... ويسقط ركبتاه من الخوف ؟ ... في وجهه ... سيفه !

انه يستطيع ان يملك كل الاسلحة المرعبة في العالم ويستطيع ان يملك الف قنبلة والف سفينة والف امرأة ايضا ويستطيع ان يملأ نفسه بالغرور الى حافته ، ولكنه سيظل دائما — حتى الابد — مجرد مهرج منافق يرتعد رعبا امام ظله ، ويعيش خائفا فيه ... مصراعيه لكي يأكل كل شيء حتى يضع الموت ... ترابه بداخله ويسده مثل اية حفرة منهمة .

● الانسان قوة في داخله لانه يملك هناك قوة الله .

فاذا ... في الفراغ الذي يدعوه « السماء » ، واذا فشل في ان يرفع راسه معتزا بقوة فضائله وحدها فانه في الواقع لن يترك شيئا حوله سوى كتلة اللحم الخرافية التي خرج بها ذات يوم من مياه البحر زحفا على ركبتيه مثل اي جارية في حضرة السلطان .

وانا اعرف ان الانسان ليس جارية ، واعرف انه سيجد طريقه في نهاية المطاف ويطلق القوة الحقيقية الكامنة في داخله — كما اطلق ... — قوة ... والجاذبية ... ، وسوف ... الانسان هذه ... ولن يجعله السلطان يرتعد رعبا ... الله ... بلا حدود .

كروس — السبت
سنة ١٨٤٦
اقلام حبر السيارات
... اقلام حبر ... ذو ... الاقلام ... ذات سن ... رصاص ...
اقلام كلها انيقة ورقيقة
تباع في طرابلس لدى : السوق ... طرابلس ... شارع الاستقلال رقم ١١٧ ... تباع في بنغازي لدى : ... جنرال التجارة .
البيع بالجملة والتصليح
هاتف ٣٠-٢-٤٠٣٩١

Twitter: @alqareah

رسالة

السيد المحرر:

مع الكثير من الأصدقاء، لا زلنا نتابع دراسة صادق النيهوم ـ العودة المحزنة إلى البحر ـ باهتمام كبير وشوق إلى معرفة النتائج التي سيصل إليها ومناقشتها.

وبالإضافة إلى أنني أحس بأنه ليس من الضروري أن يظل نشرها كما هو الآن أسبوعيًا. وأقترح أن تنشر منها حلقات في الأعداد اليومية، الأمر الذي سوف يؤدي بصورة أكبر إلى ترابط الموضوع في ذهن القارئ وإلى عدم إحساسه بالملل الذي قد يكون نتيجة معاكسة للهدف من نشرها متباعدة الحلقات.

فنحن نتوق إلى معرفة ما يريد النيهوم أن يعرضه علينا. بالإضافة إلى كل هذا، فقد لاحظت في الحلقة العاشرة إيراده

Twitter: @alqareah

للإجابة الأولى على سؤال الإنسان عن الهدف من الحياة، بأنها بدأت بالصدفة، وتهدف إلى زيادة كفاءتها المادية لكي تجعل البقاء أمرًا ميسورًا وممتعًا. ثم خلوصه إلى أن ذلك لم يتحقق، وأن الإنسان الذي سار في هذا الطريق فشل في حياته ولم يحس بالسعادة، وبدا أنه استنتج من ذلك خطأ الإجابة الأولى، ورجح الثانية التي تعترف بوجود الله، لكن.. المرء يستطيع أن يؤيده بشأن الإجابة الثانية، لكنه لا يستطيع أن يعتبر ذلك إثباتًا لخطأ الإجابة الأولى.

فالذي يقول بأن الحياة بدأت بالصدفة، وأن ما تهدف إليه هو زيادة كفاءتها المادية لجعل أمر البقاء ميسورًا وممتعًا، يمكنه القول بأن عدم نجاحها - أي عدم إحساس الإنسان بالسعادة - ليس أمرًا مهمًا بالنسبة لهذا العالم، فالطبيعة باعتبار الإجابة الأولى - صحيحة - لم تخلق الإنسان. لقد تم كل ذلك بالصدفة.

وليس المهم هو النتيجة لكي تثبت أن الحياة لا تهدف إلى زيادة الكفاءة المادية.. المهم هو أن يثبت منذ البداية أن الحياة لم تبدأ بالصدفة، وليس الهدف من وجودها هو زيادة الكفاءة.

فالمرء قد يفترض بأن الحياة تهدف إلى زيادة كفاءتها المادية لجعل البقاء ميسورًا وممتعًا، لكنها فشلت.. وأنها تسير نحو الفناء. ولأن ذلك كان يبدو محزنًا، كان من المفروض أن يتوقف الصادق هنا أكثر لمتابعة أخطاء الإجابة، لكنه كما يبدو يحس

Twitter: @alqareah

برغبة في الخلوص إلى الإجابة الثانية عبر أقصر طريق وبأسرع ما يمكن، وقد فعل ذلك وقفز إلى الإجابة الثانية التي تحمل الكثير من الإقناع، تاركًا ثغرة كبيرة ظلت تشدني إليها لوقت طويل.

عبد الرزاق الماعزي(*)

(*) كاتب وشاعر ليبي. وقد وجه هذه الرسالة إلى (رشاد الهوني) مدير تحرير صحيفة الحقيقة، من خلال متابعته للدراسة أثناء نشرها بالصحيفة اسبوعيًا في الفترة من (يونيو 1969 - يناير 1970). وتم نشرها مع الحلقة الحادية عشرة بتاريخ السبت 1969/8/30.

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

المحتويات

الحلقة الأولى 7

الحلقة الثانية: بداية الطريق 15

الحلقة الثالثة: الرجل الأمريكي «تقرير مترجم عن: رالف وينتر» 23

الحلقة الرابعة: نعمة تقدّمنا «تقرير مترجم عن: رالف وينتر» 31

الحلقة الخامسة: عن نساء أمريكا «تقرير مترجم عن: رالف رينتر» 39

الحلقة السادسة: سيلفا معروضة للبيع «تقرير مترجم عن: رالف وينتر» 47

الحلقة السابعة: تعقيب 55

الحلقة الثامنة: وجه الرخاء الآخر 63

الحلقة التاسعة: أقوى من الطوفان 73

الحلقة العاشرة: العبث الباهظ الثمن 81

Twitter: @alqareah

الحلقة الحادية عشر: العودة المحزنة إلى البحر 89
الحلقة الثانية عشر 97
الحلقةالثالثة عشر: 105
الحلقة الرابعة عشر: 113
الحلقة الخامسة عشر: 121
الحلقة السادسة عشر: 129
الحلقة السابعة عشر: 137
الحلقة الثامنة عشر: 145
الحلقة التاسعة عشر: 153
الحلقة العشرون: 161
الحلقة الحادى والعشرون: 169
الحلقة الثانية والعشرون: 177
الحلقة الثالثة والعشرون: البحث عن نهاية 185
ملحق: 193
رسالة 197

Twitter: @alqareah

Twitter: @alqareah

العودة المحزنة إلى البحر

متى كانت رحلة القدوم من البحر؟
وأي بحر يقصده الكاتب؟
وما حتمية العودة إلى البحر؟
ولم كانت العودة - بالقطع - حزينة؟

هذه كلها أسئلة تثيرها صفحات الكتاب، منذ سطورها الأولى، حتى آخر كلمة في الكتاب، وسوف يبذل القارئ لهذا الكتاب - بلا شك - جهداً كبيراً في سبر أغوار هذه الرحلة: ذهاباً وإياباً، كي يستطيع أن يحلق في أفق عوالم مؤلف الكتاب المتعددة المتباينة.. لكنه يحظى - في نهاية الأمر - إذا أجاد التحليق، بجائزة العودة السعيدة إلى البحر..

لقد مثل يقين الإنسان المعاصر بكفاءته المادية، ثقباً، تسللت منه كل المآسي والنكبات التي عاناها وعانى منها عبر حضاراته المختلفة.. كما شكل في الوقت ذاته - أداء الإنسان السطحي الظاهر المتظاهر بثقته في قوته الكامنة - بداخله إلى مآسٍ ونكبات مماثلة وفشل ذريعاً فاق فشله في ركونه إلى كفاءته المادية.. الأمر الذي يجعلنا - بل ويدفعنا - إلى التسليم بضرورة أن يطلق الإنسان قوته الحقيقية، نفحة الله الكامنة في أعماقه، إطلاقاً حقيقياً، يجعله لا يرتعد في حضرة أي سلطان... لا لشيء، وإنما لأن الله أكثر هيبة.. أكثر هيبة وبلا حدود.

مكتبة النيهوم
سلسلة الدراسات: (7)

الصادق النيهوم كان كاتباً غير عادي، وقد أثارت كتاباته، طيلة حياته، - وربما ما تزال في تقديرنا - أصداء ستتردد لفترة طويلة. وإحساساً بقيمة هذا الكاتب وعطائه الغزير. بادرت (دار تالة) إلى تجميع نتاج النيهوم المتناثر في عديد الصحف والدوريات، سواء في ليبيا أو خارجها. مما لم يسبق إصداره، بعد الاتفاق مع ورثته، ونشره في سلاسل تحوي أعماله كافة ورأت أن تطلق عليها اسم (مكتبة النيهوم)



التوزيع الحصري خارج الجماهيرية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى
ص.ب. 113/5752 ر.ب. 2070 1103 . بيروت . لبنان
Email: arabdiffusion@hotmail.com